

# جمهورية العبث

«عليك يا أخي الكريم أن تحرص على عدم قطع علاقتك اليومية والدائمة باشتهااء الطيبات؛ لأن ذلك سيبك الوحيد إلى تذكر أنك ما زلت حيًّا، حتى وإن كنت حيًّا لا تُرزق بكل ما تتمناه أو بأي مما تتمناه. صدقني عندما تفقد قدرتك على الاشتهااء لن ينفعل في المستقبل القريب ببصلة أن صوتك كان عاليًا طول الوقت، أو أن موقفك كان دائمًا سليمًا أو أنك كنت تحارب على الدوام المعركة الصبح، فما فائدة أن ينتصر الفريق الذي تحارب في صفوفه إذا اكتشفت - في نهاية المطاف - أنك تحولت إلى جثة؟ لذلك أرجو أن تتذكر دائماً أن استمتاعك بالنصر، إن جاء النصر، يتوقف أصلاً على بقاءك حيًّا تستتهي وتُستهي، فلا خير في نصر يأتيك وقد فقدت قدرتك على الضحك والطرب والتذوق والنشوة، وكل هذه أمور تفقد كفاءتك فيها مع الخمول والانقطاع، فالعلم بالعلم، والشهوة بالاشتهااء، والنشوة بالتنشّي، والعظمة لله والتناكة لقوم آخرين أنت تعلمهم».

بلال فضل



9 789770 933152

دار الشروق  
www.shorouk.com

بلال فضل

جمهورية العبث

دار الشروق

بلال فضل

جمهورية  
العبث

دار الشروق

بلال فضل

# جمهورية العيب

تعددت الحكام والهَمّ واحد

دار الشروق

جمهورية العيب

بلال فضل

تصميم الغلاف: وليد طاهر

الطبعة الأولى ٢٠١٥

الطبعة الثانية ٢٠١٥

تصنيف الكتاب: أدب ساخر

دار الشروق

٨ شارع مصرية المعصري

مدينة نصر، القاهرة - مصر

٢٤١٧٧٩٩

www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٤١٧٧٩٩  
ISBN 978-977-08-3313-3

إلى يوم الجمعة  
الثامن والعشرين من يناير  
من سنة ٢٠١١..

## المحتويات

٩	أجذع من أي مقدمة
١١	رسالة من إبليس تحت قصف الجمرات!
١٥	دعوني أحدثكم عن «الحفاة»!
٢٥	قوم يا مصري.. نام في سريرك!
٣٠	دورة حياة الرئيس (من دائرة معارف الحيوانات السياسية)
٣٥	شرم الشيخ وكفر الشيخ!
٣٨	يَهْدِه العَبث!
٤٢	نفس خامدة الكرسي!
٤٦	على «ناكسي» في الشارع السياسي
٥٤	من محاورات قهوة الكراسي البيضاء
٥٧	اركب مع الثورة!
٦١	حكاية أثناء النوم
٦٦	البصيصة الوطنية
٦٩	من يوميات سائح حسن النية.. سمي الحظ!
٧٥	كان لي رئيس فيلسوف!
٨٤	خطاب لم يُلقه أوباما!
٨٧	العسكري الراقص!



## أجدع من أي مقدمة

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظُلماً مُنظماً  
عَولتُم على عِزِّ الجماد ودُلنا فأغليتُم طيناً وأرخصتُم دما  
إذا أُخْصِبَت أرض وأجدب أهلها فلا أطلعت نبتاً ولا جادها السما

شاعر النيل حافظ إبراهيم، يناير ١٩٠٧

«أعرف شيئين في غاية البساطة، أما الباقي فلا أهمية له: الأول  
هو أن العالم الذي نعيش فيه تحكمه عصبة نبيلة من الأندال التي  
لطخت الأرض، الثاني أنه يجب ألا نأخذ الأمر على محمل الجد؛  
لأن هذا هو ما يرغبون فيه».

الكاتب المصري ألبير قصيري من رثائه

«العنف والسخرية» - صدرت عام ١٩٦٢

- ٩٢..... عن أهمية الكلوت كحد أدنى للاستثمار!
- ١٠١..... التخلل الانتكاسي!
- ١٠٦..... العائشون في الديباجة!
- ١١٠..... التدرجيين أنت إمامهم!
- ١١٦..... ما صدقنا هذا!
- ١٢٠..... انتخبوا الرئيس الطائر!
- ١٢٢..... عاجل من جبريل!
- ١٢٥..... أشياء مدورة محشية!
- ١٢٨..... ومالها كوريا الشمالية يعني؟
- ١٣٣..... اللهم لا افتراض!
- ١٣٧..... «كان عندك إيدز وراح»!
- ١٤٢..... إنها «سلمية»
- ١٤٧..... يغرب بيت الثورة ياشيخ
- ١٥٢..... إيه الخلاوة دي؟
- ١٥٥..... جو تو هيل!
- ١٦٠..... هل سينزل جمال مبارك إلى الرويعي ودرب البرابرة؟
- ١٦٦..... الغاز سلاحاً للردع!
- ١٧٠..... ليلة اخفاء التمثال!
- ١٧٤..... دليل الحاكم الختيت إلى فن الإتيكيت
- ١٧٩..... ما بتهزناش الزلازل يا باشا!!
- ١٨٣..... طويلة لسه طويلة
- ١٩٠..... الشاكم بأمر الله!
- ١٩٨..... غل بالك من الغاليغاك!
- ٢٠٢..... وجهة نظر يهودا

### رسالة من إبليس تحت قصف الجمرات!

«... بصراحة زادت المسائل عن كل حد، وأصبحت أكبر من قدرتي على التحمل.

أعرف أنه ليس من حقي أن أطلب منك شيئاً؛ لأنني فقدت هذا الحق يوم أن قررت التمرد عليك، لكن سيظل من حقي أن أعترض وأشكو وأسخط حتى لو لم يكن لذلك أي جدوى، أعلم أن هذه الرسالة ستلاقي مصير الرسائل السابقة، ومع ذلك أكتبها ربما لأواجه نفسي بحقيقة مؤسفة هي أنني لا زلت بعد كل ما جرى مشغولاً بك، وأنني لم أحقق بعد ما تمنيت، بالأحرى يكون كل ما أفعله مجرد رد فعل على طردك لي من جنتك.

منذ زمن بعيد توقفت عن التعامل مع ابتهاج عبادك في كل موسم حج برجمي بالحجارة والأحذية والبصقات؛ بوصفه إهانة شخصية تستحق الأسى والحسرة. كنت في البداية أتجرع مرارته كيوم كتيب سيبر مثل غيره، حين يتوهم عبادك أنهم حققوا انتصاراً عليّ وعلى ذريتي، ليعود كل منهم إلى حيث أتى متصوراً أنه تقرب لك على حسابي، ونال رضاك بعذابي، لكن لا بأس، سيكون لديّ السنة بطولها لجعل عبادك يدفعون ثمن ذلك الغل غالياً.

نعم، كنت أفكر بهذه السذاجة؛ لأنني لم أكن قد عرفت الكثير عن تلك الكائنات الحقيرة التي فضلتها عليّ، لكن ذلك تغير عندما بدأت مع مرور الوقت أعتاد ألم ذلك اليوم، وأصبحت لديّ القدرة على النظر في وجهه أولئك القاذفين بالباسقين اللاعنين، لأختار أكثرها غلاً لأتذكره؛ لعلي أبدأ بتصفية حسابي معه فيما بعد، وقد كان ذلك أفضل قرار اتخذته في حياتي، فقد رأيت حينها وجوها كنت أعرفها جيداً، ليس لأن بها شيئاً مميزاً يسهل الناظرين، فأنا حتى الآن لا أفهم كيف تكون هذه أحسن صورة يمكن أن يكون عليها مخلوق من مخلوقاتك، لا زلت أعتبر طائر الكناري أو زهرة البنفسج أو ذكر القندس أو أنثى الخنفساء المرقطة أفضل وأجمل وأجدي ألف مرة، لكن ليس هذا موضوعنا الآن.

ماذا كنت أقول؟ آه، كنت أقول إنني مع أول مرة نظرت في وجهه المتحمسين لرجمي، رأيت وجوها أعرفها جيداً؛ لأن أصحابها فعلوا أمام عينيّ أشياء أخجل أنا شخصياً من التفكير فيها فضلاً عن فعلها، دون حتى أن يمتلكوا شجاعة المواجهة والاعتراف بعصيانهم لك، كما فعلت أنا حين واجهت الجميع برفض طاعتك، وتحملت ثمن ذلك بكامل إرادتي، أما هم، عبادك، فقد كانوا كلما تمت مواجهتهم بأفعالهم، سارعوا برمي «بلائهم» عليّ واتهامي أنني أنا الذي حرضتهم على خطاياهم، برغم أنني كنت أراقبهم مذهولاً خلال قيامهم بها، متسائلاً حينها كيف، ومن أين أنتهم هذه الأفكار الشنعاء؟ وأعترف أنني كنت دائماً أجد نفسي عندها أفكر فيك، سائلاً نفسي عن رد فعلك على ما تراه، خاصة وأنت تعلم أنني لا علاقة لي بما يفعلونه،

فأتمنى أن يعود لي الحق ثانية في مواجهتك لأسألك: هل كان هذا الصنف الرديء يستحق انحيازك له؟ ثم أشعر بالحنن لأنني لا زلت أفكر فيك بعد كل هذا العمر، فأحاول نسيان حزني بالغرق في بهجة الشماتة، لكن تلك البهجة لا تدوم حين يتملكني شعور بالغضب من نفسي؛ لأنني لم أعد قادراً على إدهاشك بقدرتي على الشر، وأنني أصبحت مطالباً بأن أتفوق على كائنك المفضل؛ لكي لا يسلب مني ما بقي لي من تميز واستثنائية.

منذ أن أدركت كل ذلك، لم يعد رمي الجمرات يضايقني أبداً، على العكس، أصبحت ساعاته تمضي سراعاً في السخوية من كذب القاذفين، والتفكير في طريقة لفضح كل منهم على حقيقته. صحيح أنني أرى أحياناً قلة صادقة مندسة وسط جموع الراجمين، فيؤلمني فشلي في إقناعها بأن تكون كما أحب، وحرصها على أن تكون كما أحببت أنت، لكنني أتجاوز هذا الألم بتذكر كلام أعجبني حين سمعت بعض عبادك يرددونه في مناسبات متفرقة؛ كلام من نوعية «الشجرة المثمرة تقذف بالحجارة - الضربة التي لا تقصم ظهرك تقويك - الصبر مفتاح الفرج - الشتيمة ما يتلذّش»، بالأسس مثلاً ظللت أردد عبارة أعجبتني حين سمعتها من رئيس مصري تقول: «زمان لما كنت صغير كنت باقول للي بيضربوني: بكرة أكبر وأضربكم»، أخذت أرددها وأنا أضحك من أعماق قلبي متخيلاً نفسي وأنا أقوم بتقييد كل شخص رماني بجمرة أو حذاء أو حصاة، وأقوم برجمه وأنا أسبه وألعنه وأتهمه بأنه سبب كل مصائبي وكوارثي ونكباتي، وحين «شرقت» من فرط الضحك، وجدت نفسي أقول عبارة كنت قد نسيتهما من زمان: «اللهم اجعله خيراً».

وما حسبته لقيته، فما إن هدأ ضحكى وعدت لتأمل وجوه  
الراجمين، حتى أفزعني أن أجد بينهم هذا العام وبشكل أكثر من كل  
الأعوام السابقة، حُجَّاجاً كثيرين لا يقومون هذه المرة بسبي ولعني  
في لحظات الرجم، بل يقومون بسب ولعن حكاهم ورؤسائهم؛  
بدعوى أنهم يعملون لديّ ويأترون بأمرى حين يقومون بقتل  
مواطنيهم من أقارب وأحباب ومعارف هؤلاء الحجاج، وأعترف  
أن هذه كانت أكثر لحظة شعرت فيها بالإهانة في حياتي؛ ولذلك  
كان لا بد أن ألجأ إليك لعلك تتدخل وتأمّر عبادك بأن يتذكروا  
من كنت حين كنت أنعم برضاك؛ لأنه يفزعني أن يتصور هؤلاء  
أن مخلوقا بعقلي ومهارتي وعقبرتي وكفاءتي، يمكن أن يستعين  
بخدمات مجموعة من عديمي الخيال والموهبة والكفاءة، ليتك  
تقول لعبادك إن هؤلاء الذين نصبوهم حكاما لا يشرفني حتى أن  
ينظفوا فضلاتي أو يحملوا حذائي، فضلا عن أن تكون بيني وبينهم  
علاقة عمل من أي نوع، ليتك تقول لهم أن يختاروا اتهامات منطقية  
لكي يتم نسبتها لي، فحتي أنا برغم كراهيتي لهم فردا فردا، أجد  
مسألة القتل الجماعي منفرة للغاية؛ لأنها تنفقر إلى أي خيال، ولا  
تبعث أبدا على البهجة.

قل لهم إنني يمكن أن أضيع وقتي بمتبى الرضا مع قاتل تسلسلي  
يستمتع باختيار ضحاياه وتعقيمهم وقتلهم وإخفاء جثثهم، أو مع  
شخص طموح يخطط لجريمة قتل معقدة يفلت بعدها بفعلته  
ويستمتع برؤية الجميع يبحثون عنه دون جدوى، لكن أين هي  
البهجة في أن أقتل عشرات الآلاف جهارا نهارا لمجرد أن أبقي  
محاطا بين جدران قصري خائفا من كل ما يحيط بي؟ وما هي اللذة

التي يمكن أن أشعر بها حين أقتل مئات الأشخاص لمجرد أن  
أقوم بإخلاء ميدان تافه شديد القبح لمجرد أن أنعم بنشوة السيطرة  
التافهة؟ وأين هي الشجاعة في أن أرى رأسا يتدحرج أمامي وأنا  
أهتف مكبرا مهللا باسمك؟ أو أن أكنم في مخبئي كالغفار المذخور  
لاستمتع برؤية الأشلاء الناتجة عن قبلة زرعتهما؟ وما هي أهمية أن  
أقتل أو أن أقتل لمجرد أن يظل أهطل ملتج أو حليق الذقن على  
كرسي الحكم؟

ثم إذا كان كل هذا القتل يبهج عبادك ويمتعهم أو يشعرهم بالأهمية  
والعظمة لأنهم يعيشون بحية مخلوقاتك، فما شأني أنا بكل هذا؟  
ولماذا لا يمتلك عبادك القدرة على مواجهة أنفسهم بأنني لا يمكن  
أن أكون مسئولاً عن هذا الجنون ثقيل الظل؟ وإذا كانوا لا يستطيعون  
أن يواصلوا حياتهم بدون جعلني المسئول عن الجحيم الكئيب الذي  
صنعوه في الأرض التي خلقتهم لعمارته. لست محتاجا لأن أخبرك  
أنني فكرت أن أضع «سمائلي فيس» بعد عبارة «خلقتهم لعمارته»،  
فأنت تعلم أنني تراجع عن ذلك لأن مجرد إظهار شماتي بمثل هذه  
السخرية سيجعلني أبوء أنني مكترث للغاية بموقفك؛ لذلك فضلت  
أن أحاول إقناعك أنني لا أكثر، مع أنك تعلم أنني مكترث، لكن  
هذا ليس مهماً الآن، المهم أن أؤكد لك أنني لا أطلب من عبادك  
أن يكفوا عن النفاق والكذب، فهم يكذبون عليك وأنت كفيل بهم،  
ولا أتصور أن هناك أملا في إقناعهم بهذه الأفكار لأن الرد عليها  
سيكون عبارات أكثرها تهذيئا (الشيطان يعظ)، وسأدخل معهم في  
جدل سوفسطائي عقيم يهدف إلى إثبات طهرهم وتأكيد عهري،

عادة عبادك ولن يشتروها، ولست أطلب منهم أن يتغيروا من أجلي؛ لأنهم لو كانوا قابليين للتغيير لتغيروا من أجلك، بدلا من أن يظنوا أن مجرد رجهم لي سيحل مشاكلهم ويقربهم إليك، لست أطلب منهم سوى أن يتحلوا أثناء كذبهم ونفاقهم ببعض الخيال وبعض الشرف، فهل هذا كثير؟».

سبتمبر ٢٠١٤

### دعوتي أحدثكم عن «الحفافة»!

الناس يسمونها «حفافة»، وهي لا تحب تلك التسمية مع أنها ابنة منطقة شعبية تربت فيها على أنه لا عيب إلا العيب، لكنها مع ذلك اختارت البحث عن تسمية أخرى، ليس فقط لأنها خريجة جامعية لديها كبرياء؛ ولكن لأنها تعمل في «بيوتي سنتر» كبير ومحترم في مدينة نصر، وليست «ما تأخذنيش يعني» من اللواتي يقمن باللف على ستات البيوت؛ لذلك هي تفضل تسمية نفسها «خبيرة ميك أب»، وزبائنها لا يمانعون الاسم؛ لأن كلمة «حفافة» لا تليق أيضا بمستواهم الاجتماعي، وأهلها أيضا أعجبهم لقب «خبيرة ميك أب» واعتمدوه بفخر بالغ، حتى إن زوجة أخيها التي تعمل في المهنة منذ سنوات وأدخلتها إلى المهنة وعلمتها أصولها، لم تعد تُخرج وتغمق بكلمات غامضة عندما يسألها أحد عن مهنتها، بل أصبحت ترفع رأسها بشموخ وتقول: «خبيرة ميك أب».

في سنوات ما بعد الثورة لم تكن بطلتنا من الذين تضرروا من تدهور الأحوال الاقتصادية في البلاد، فالشعر ليس عزيزا، وإلا لما كان يطلع حتى في الدهاليز كما تعلم، ولذلك فقد كان لديها كل يوم



ثمة من تحتاج إلى خَفّ وتزيين وتهيئة و«نظافة شخصية»؛ مما جعل دخلها الشهري من الستتر يصل إلى ستة آلاف جنيه مرة واحدة، ولله الحمد والمنة.

أشياء زوجها كانت معدنا أيضا؛ فقد كان سائق تاكسي من النوع المحب للمهنة والصامت أيضا في نفس الوقت، وهو نوع شارف على الانقراض، لكن مؤهلاته كانت كافية أن تجلب له زبائن محبين وأسخياء، لم تكن محظوظة فقط بزوجها لأنه كسيب؛ بل لأنه كان جدعا و«حُتّين» عليها وعلى ولديها، ومستقبل الولدين بدا واعدا بفضل ما كان الاثنان يدخرانه كل شهر، وإذا كانت نفسك قد بدأت «تموع» من فرط السعادة الموجودة في الحكاية، فدعني أذكرك أننا نتحدث عن مواطنين مصريين عاديين؛ ولذلك يستحيل أن تستمر القصة سعيدة هكذا بعد البوينية الأولى بلغة السينما، حتى «تعالوا نشوف»:

يومها، كانت العروسة المستظرة قد جاءت إلى البيوتي ستتر بصحبة والدتها لعمل اللازم قبل زفافها بليلة؛ ولذلك لم يكن غريبا أن تكون مستعجلة ومتوترة و«مش طايقة حد»، كان يجب أن تبدأ زينتها بـ«السويت»؛ ذلك الاسم الذي فضّله أهل بلادنا على «الحلاوة» كما فضّلوا الأدب على العلم، بطلتنا اقترحت يومها أن تبدأ عملها في «الإسميشيال إيريا» لأنها «الأصعب في الشغل»، لكنها قررت بعد أول نظرة أن ذلك لن يكون ممكنا قائمة لصاحبة الستتر: «معلش يا مدام أصل الأنسة عليها دم»، ولم تكن تقصد بالطبع مدح العروسة بأن عندها دم، بل كانت تقصد الإشارة إلى أنها تمر بأيام دورتها الشهرية،

والجملة التي قالتها بطلتنا «عادي يعني»، لم تعجب العروسة التي قالت بغضب: «إيه عليها دم دي؟ مش تختاري ألفاظك وبلاش الألفاظ البيئة دي.. اسمها عندها البيريود.. وبعدين مش فاهمة إنتي مالك باللي عندي.. ما تشتغلي وانتي ساكنة أحسن لك». ولأن بطلتنا «بنت سوق»؛ فقد كانت مدبرة على أن تتعامل مع أي انفلات أعصاب بثبات انفعالي وبإبتسامة عريضة جدّا، لكنها لم تقوَ على الابتسام هذه المرة لأن مزاجها كان متعكرا يومها؛ ربما لأنها كانت أيضا «داخلة على البيريود»؛ أو لأن هناك تفسيرا آخر أكثر منطقية تقوله الآن بعد أن اتضحت نظرتها لما جرى؛ تفسيرا يضع ما جرى لها في سياقه التاريخي والاجتماعي حين يقول: «اللي زينا حظّه كده.. استحالة تكمل معنا حلو للأخر».

لا أريدك أن تقترض أن بطلتنا غضبت يومها من انفعال العروسة فرفعت صوتها أو حتى لوت بوزها، على العكس تماما، فقد ظلت هادئة كراهب بوذي قديم، وقالت للعروسة الغاضبة بأدب جم: «يا فندم أنا ممكن أعمل لحضرتك اللي انتي عايزاه بس ما ينفعش أقرب للإيريا دي وانتي عندك البيريود»، لتنفلت العروسة المتوترة بوصلة من السباب، لم ترد عليها بطلتنا، مكتفية بالابتعاد عن العروسة الغاضبة، وعندما طلبت منها مديرة البيوتي ستتر أن «تعيديها» وتشتغل، طلبت منها أن تنظر بنفسها إلى «الإيريا» لترى كيف تبدو آثار الاستحالة جليلة للعيان: «يا مدام لو قلتي لأي واحدة من البنات تشتغل في الإيريا بحالتها دي مش هترضى»، وإذا كنت لم تفهم ما تقصده بطلتنا بجملة «بحالتها دي»، فدعني أقل لك إنني



لم أفهمها أنا أيضاً، لكنني لم أسألها عن أي تفاصيل للتفسير، «مش لإني مش قادر ولكن لإني مش عايز».

العروسة الغاضبة لم تكنف بعد تيقنها من رفض بدء «الشغل فيها» بستم البنث، بل شتمت البيوتي ستر وصاحبه واليوم الذي جاءت فيه، متوعدة الجميع قبل انصرافها بالويل والثبور وعظائم الأمور، والكل تعامل مع تهديداتها على أنه انفلات أعصاب طبيعي بسبب «اللي هي فيه»، متمنين لها أن تجد «حفاة بيتي» تتساهل في التفاصيل وتوافق على أن تفعل لها كل ما تريده دون تأفف، وبعد أن انصرفت بزعايبها، ظلت بطلتنا طول اليوم تتفنن في معاملة زبائنها بزيادة عن الطبيعي، لتثبت لصاحبة البيوتي ستر أنها لم تكن متكاسلة أو متخاذلة، وكل ما هنالك أنها لم يكن ينفع أن تشتغل في «إيريا بالحالة دي».

## قطع

(ليل - داخلي - تخشبية قسم شرطة)

ترقد بطلتنا على أرضية التخشبية محاولة أن تفهم ما الذي أتى بها إلى هذه التخشبية المكتظة بمجموعة من المجرمات الجنائيات ومجموعة أخرى من الفتيات والسيدات المحتجزات من مظاهرات جماعة الإخوان، لم تتوقع أن تجد نفسها محتجزة مع إخوانيات، وهي التي تحب البطل عبد الفتاح السيسي وتعشق سواد نور عينيه، ولم تتأخر لا هي ولا زوجها ولا عائلتها في مساندته وتوقيضه وتأييده لكي يظهر مصر من الإخوان، فكيف إذن حدث ما حدث؟

آه من الأيام آه، فلو كانت بطلتنا تعلم أن أخا العروسة الغاضبة وكيل نيابة «قد الدنيا» كانت قد تنازلت وفعلت لأخته ما تريد في «أي إيريا في أي بيرو»، لكن كيف كان لها أن تتوقع أن سعادة الباشا أخا العروسة سيأتي في اليوم التالي مباشرة ليحول تهديدات أخته من بعبعة إلى كابوس، حين يتهم بطلتنا بسرقة خاتم ذهبي ثمنه ثلاثة آلاف جنيه من حقيبة أخته، هي أيضاً لو كانت تعلم أن ردّها المتفاخر بأنها ليست بحاجة للسرقة لأنها تقبض ستة آلاف جنيه شهرياً من المركز سيورطها لاحقاً في مشاكل تخص الضرائب وتصريح العمل والصحة لكانت قد اختارت ردّاً آخر أكثر انسحاقاً، ببساطة هي لم تكن لتعلم أبداً أنها ستتحول إلى متهمة على الورق بتهمة السرقة، بينما تهمة الحقيقة التي لم تكن تعلم أن القانون يعاقب عليها هي حرق دم وكسر نفس العروسة أخت الباشا بنت الناس الأكاير «اللي كلهم حابين يخدموا عروسة منكسرة النفس».

تقول بطلتنا لنفسها ولمن ارتاحت لهن من شركاء ليالي التخشبية المقيضة بحزن شديد: «لو كنت أعلم ذلك كله لظلفت لها بغمي وليس بيدي»، ولم تكن تبالح فيما تقوله، هي تقسم على ذلك مراراً بكسر الميم وفتحها؛ لأن كل ما كانت ستعاني منه وقتها من قرف وأذى، لم يكن ليساوي أبداً رمتها في تخشبية القسم «رمة المواطنين العاديين» - ولعلك أصبحت تعلم أنها أمرٌ وأدهي من رمة الكلاب - لمدة شهر كامل دون أن يبان لها بيان، كل دم الدنيا النازف من كل «الإيريهات» لن يجي شيئاً في تعرضها للتحرش والتحسيس والمسك في كل «إيريا» دون خشا ولا حياء، ولا في رؤيتها لمشاهد تعذيب لمحتجزات هددن الضابط بأنهن سيخرجن إلى الإعلام ليشتكين

ما حدث لهن من تحرش، فكان جزاؤهن حفلة تعذيب لن تنساها البطلة ما عاشت، وكان جزاء رفيقاتهن في التخشبة - حتى اللواتي لا علاقة لهن بالأمر مثلها - أن يتم إغراق أرضية الزنزانة بما عليها من مراتب وبطاطين لمدة ثلاث ليالٍ تكديرا لهن؛ وضربا للمربوطة والساية و«اللي مش فاهمة أصلا هي هنا بتعمل إيه».

غرق بطلتنا في أحزانها وهي جالسة دون حراك على البطانية الغرقانة، لم يفقدها أبدا إيمانها بالله، فلم تتخلَّ عن دعائه والتوسل إليه بأن يفك كربها ويعجل لها بالفرج ويخرجها سالمة لزوجها وولديها، وهي لم تكن تتخيل أن الله سيستجيب لدعائها سريعا ويجعل حظها أفضل من كل المظلومات معها، حين ساق لها وكيل نيابة «جدع» جاء أجمل من أحلامها، لم تصدق صوته الغاضب عندما قال: «إنتي إزاي أصلا اتحبستي كل ده في قضية باظلة؟»، كلماته الرائعة أنستها أنها جاءت متأخرة بعد شهر كامل ظلت فيه مرمية في التخشبة حيث كان يمكن أن يطول حجزها لأشهر، لولا أن تم عرضها على النيابة بعد كم مهول من الوساطات والإكراميات والمحاولات بذلها زوجها وصاحبة البيوتي سنتر لدى كل من هو مهم أو يمتلك سكة إلى «حد مهم»، لكن هذا ليس مهما، المهم أنها خرجت بالسلامة. صحيح أنها تأخرت بعض الشيء في مكتب وكيل النيابة؛ لأنها ظلت فترة طويلة تدعو لوكيل النيابة الذي رأت في عينيه دموعا ذكَّرتُها أنه كان «البنّي آدم» الوحيد الذي رآته منذ شهر.

لدى بطلتنا ثقة أن الله تعالى سيستجيب لدعائها لو كِيل النيابة الذي أخرجها من السجن، لكن ما تتمناه أكثر أن يستجيب الله

لدعائها على وكيل النيابة الذي أدخلها إلى السجن، والذي لم يكتب كل ما جرى لها، بل قرر أن يطاردها هي وزوجها ويحاصرهما في زعيمهما؛ لأنهما قررا أن يرتكبا جريمة شنعاء، هي جريمة عدم تقبل الظلم والسكوت عليه، وهي جريمة حرصهما عليها المحامي الحالم الذي تابع قضيتهما والذي أقتنعهما أن لديهما فرصة لكسب قضية رد اعتبار وإثبات الظلم الذي تعرضت له لتأخذ حقها من وكيل النيابة، وهو أمر لم يكن ممكنا أن يتسامح معه الباشا أخو العروسة؛ لأنه يمكن أن يسبب له مشاكل في عمله، خصوصا بعد أن أصبح موقفه ضعيفا بفعل الموقف الذي أخذه زميله وكيل النيابة الذي انحاز ضده ووقف مع هذه الحفافة الحقيرة التي حوّلت ليلة عمر أخته إلى ليلة مزعجة.

بطلتنا عادت لتصبح مجرد حفافة بعد أن فقدت لقب خبيرة تجميل؛ لسبب بسيط، هي أنها لم تجد فرصة لكسب رزقها إلا من خلال شغل البيوت في «أييريا» في القاهرة والجزيرة وضواحيهما، بعد أن نجحت ضغوط الباشا وأخته وأصدقاء عائلتهما الكريمة في إجبار صاحبة البيوتي سنتر على الاستغناء عنها؛ وقد جعلها ذلك تفقد تماما الرغبة في الحصول على أي رد اعتبار أو إنصاف؛ لأن التهديدات التي تعرضت لها هي وزوجها من قبل بلطجية راغبين في مجاملة الباشا، أدت بها إلى أن تترك بيتها لفترة، وأن يترك زوجها التاكسي الذي يعمل عليه بعد تعرضه لسلسلة اعتداءات متلاحقة؛ ولذلك سحبت هي وزوجها كل بلاغات رد الاعتبار وكل أحلام الإنصاف، وفوضت أمرها هذه المرة إلى الله، ليس سواء.

هي لم تعد تحلم الآن سوى بأن يصدق الباشا وأخته أنها وزوجها  
قد تعلما الدرس جيدا، وأن يوافقا على توسلاتها بأن يبلغ صاحبة  
البيوتى سنتر بعدم ممانعته لعودتها إلى العمل، فقد زهقت من اللف  
على البيوت والفصال المرهق وتحمل تحرشات رجال البيوت، هي  
تحن بشدة إلى لقب (خبيرة ميك أب) الذي فقدته لأنها لم تدرك  
حقيقة بسيطة جدًا يجب أن تضعها أمامها كل من تحلم بالحفاظ على  
لقب خبيرة تجميل مدى الحياة: «في هذا البلد، لا ترفض أبدا تنظيف  
أي إيريا قبل أن تسألي عن شجرة عائلة صاحبها».

أغسطس ٢٠١٣

### قوم يا مصري.. نام في سريرك!

لا تعتبروني مهوسا بنظرية المؤامرة عندما أقول لكم إن هناك  
أدبا غير وطنية أو حتى غير فنية، وراء اختيار التلفزيون المصري  
لأغنية «قوم يا مصري» التي أبدعها الفنان الخالد سيد درويش لكي  
تكون خلفية موسيقية لتغطية الانتخابات الرئاسية. فقد تعودت على  
الأثني في أي قرار يتخذه «العاكمون بغير أمر الله» في هذه البلاد؛  
ولذلك لا أرى أن اختيارهم لهذه الأغنية وراءه سبب سوى أنها تصب  
بشكل مباشر في مصلحة الرئيس مبارك، فهي تقول في كلماتها: «قوم  
يا مصري مصر دائما بتناديك.. خُد بنصري.. نصري دين واجب  
عليك.. يوم مبارك.. رُد تارك»... إلى آخر كلمات الأغنية.

ولأننا جميعا نعلم أن يوم الانتخابات الرئاسية سيكون «يوم  
مبارك» طبقا لنص المسرحية المطبوع والمنشور في تعديلات  
المادة ٧٦ بتوقيع الدكتور فتحي سرور؛ لذلك لا داعي للضحك  
علينا بالقول إن اختيارها نابع من إيمان ساسة مصر بضرورة أن يتذكر  
المصري أن «مصر بتنادي عليه»، فهم يعلمون جيدا أن المصري  
«إطرش» ببركات ثلاثة وخمسين عاما من الاستبداد لم يستمع فيها  
إلى أي نداء من مصر بعد أن قام الخكام بعمل مصر «سايلنت» ومنعوا

المواطن المصري بأشكال متعددة بدءاً من وضع الصرمة في فمه وانتهاء بوضع الميكروفون في فمه ثم حذف ما يقوله في الرقابة، أدت به إلى أن يستعاض عن حالة الخرس هذه بالتعبير عن وجوده بالزئيق: الزئيق في الصالة على زوجته وأولاده الذين لا يقدرّون مجهوده التاريخي في العبور بالأسرة من أجل المستقبل، والزئيق من البلكونة على العيال اللي بتلعب في الشارع لأن الشارع ليس للعب والعياذ بالله، والزئيق من أسفل البلكونة للمطالبة بنزول السبّ - وهو الشيء الوحيد الذي يمكن أن تطالب بنزوله في الشارع المصري دون مساءلة، والزئيق من على المنبر بأن يزلزل الله أمريكا ويخسف بإسرائيل الأرض وبالمرة ينصر إخواننا في الشيشان على روسيا، والزئيق في الإستاد على حكام الكورة - وهم الحكام الوحيدون في مصر الذين يسمح التلفزيون بإذاعة سب أمهاتهم - والزئيق في القهوة على الجرسون ليسرع بتغيير الحجر - وهي عملية التغيير الوحيدة التي تتم بسلامة وبشكل يومي في منصر - وخذ عندك ما شئت من أنواع الزئيق التي تجعل المواطن يسب ويلعن كل شيء ابتداءً من حظه الأخير، ومروراً بالعيشة واللي عابشينها، وانتهاء بمصر «اللي هي أمه».

والغريب أن كل هذا الموزاييك من ألوان الزئيق لا يمنع المواطن من الزئيق في نهاية المطاف في أقرب لقاء بالحاكم «يا مبارك يا مبارك الشعب المصري قد اختارك»، طيب قولوا لي إذن بالله عليكم: كيف يمكن لأي مواطن مهما كانت حدته السمعية أن يستمع إلى «ماما مصر» وهو مشغول بالزئيق طيلة العمر لمجرد إثبات وجوده؟ وهو أمر ما كان سيحدث لو كان قد شعر أن لكلمته قيمة وأن لرايه احتراماً.

عنها حتى قدرتها على «الفايريشن»، واحتفظوا لأنفسهم فقط بحق النداء الآلي والنصف الآلي واليدوي وغيرها من أشكال النداء التي ييخونها في أذن المصري والتي تتغير بحسب تغير الحاكم ولجنة سياساته، فحينما ينادي الحاكم على المصري: «قوم يا مصري قامت عليك حطة.. عشان الحطة اللي إنت قاعد فيها ملك للدولة وقررنا نأمنها ونعملها مشروع قومي، أو قوم لإننا قررنا نبيعها، أو قوم لإننا اكتشفنا إنها بتاعة ابن الرئيس»، وحينما ينادي عليه: «قوم يا مصري إنجرّ قررنا نرمي إسرائيل في البحر»، ثم يقرر فجأة أن يغير النداء إلى «قوم إنجرّ روح مافيش حرب مع ولاد العم»، ثم يقرر فجأة أيضاً أن يغيره إلى «قوم إنجرّ وريهم طريق أرضك منين عشان يزرعوها». أما النداء الذي لا يتغير أبداً في كل العهود فهو «قوم فز يا مصري عشان تبائع حاكمك الذي علّمك العزة والكرامة، أو الذي قال الكلمة بحكمة في الوقت المناسب، أو صاحب الروح السمحة أدب ومصالحة صافي القلب يا كفر مصيلحة».

سيخرج عليّ البعض الآن ليقول لي: «خسشت.. إن صوت مصر لم يخرس أبداً ولا يجرو أي حاكم على أن يتمكن من إسكات مصر التي لن تتوقف أبداً عن النداء على ابنها لكي ياخذ بنصرها»، ورأي هؤلاء مع احترامي له هو اتهام صريح للمواطن المصري بعقوق الوالدين لأنه يسمع أمه تنادي عليه ومع ذلك «مطنش»، وهو أمر فعله الكثيرون منا مع أمهاتهم هروباً من النزول لإحضار العيش من الفرن أو انتظار بتاع الأنابيب في البلكونة، والحقيقة أنني أعتقد أن هذا الاتهام غير دقيق؛ لأنه يفترض أن صوت مصر وهي تنادي مسموع لدى المصري، بينما في اعتقادي أن حالة الخرس التي فُرِضت على

أقول هذا الكلام لا سخرية من الزعيق بل محاولة لفهمه؛ لأنني أومن بأن الذين يسخرون من الزعيق احتجاجاً أو شتيمة أو غضباً ينسون أن الصراخ هو حيلة اليائس، وأن التضييق هو آخر أمل للموشك على الغرق.

إن هؤلاء الذين يتهمون المعارضين بالإفلاس لأنهم يزعمون في المظاهرات للتعبير عن سخطهم، ينسون أن الحاكم نفسه لا يستمع إلى أصوات مواطنيه إلا من خلال الزعيق عندما يقف أحد «الشحوط» ليزعم بأنه يقفدي الرئيس بدمه مع أنه يعلم أننا نعلم أن الذي يزعم هكذا لا يمكن أن يكون عنده دم أساساً، أو عندما يقف جائع ليزعم بأمل يائس «المنحة يا ريس»، فيبتسم «الريس» مطمئناً له أن العمال في قلبه الكبير الذي يتسع لمحدودي الدخل وأصحاب المليارات والموظفين في جميع الإدارات، بمن فيهم موظفو الإدارة الأمريكية وكمان فوق البيعة المستوطنون الراحلون عن مستوطناتهم - يااه شايفين قلب الرئيس كبير قد إيه يا ولاد..

ما أريد أن أقوله إنه إذا كان اليائس يزعم والموالس يزعم، فكيف سنسمع صوت مصر التي «اتنبح حسها يا عيني» وهي تنادي «خذ بنصري»، دون أن يأخذ أحد بيد نصري الذي مات في صحراء سيناء ٦٧، ومات مرة ثانية في انتفاضة الجياع في ٧١، وقتل في أحداث الأمن المركزي ٨٦، وعادت روحه الطاهرة لتزهق بالسرطان في ٢٠٠٥، ولعل الله يرحم روح نصري البائسة يوماً ما فتهدأ مصر وتكف عن النداء عليه قليلاً.

لقد أضعاف حكام مصر فرصة ذهبية للاستماع إلى صوت مصر

وهي تنادي أبناءها من أجل التغيير الحقيقي، عندما حولوا أول انتخابات رئاسية تجري في تاريخ مصر إلى مسرحية تنتمي إلى نوع المسرح الحجرية - وهي حجرية في قصر العروبة تعلم أن ساكنها لن يحادها بعد أن ضمن له رجاله كل سبيل إلى الإقامة الدائمة، مع أنه لا «دايم إلا وجه الله». وعندما يأتي هؤلاء الحكام لكي يستخدموا «العاظم سيد درويش»: «قوم يا مصري» الآن، فهم يعلمون أنهم لا يريدون للمصري أن تقوم له قومة حقيقية لأن في ذلك قيامتهم، هم يريدونه قياماً مؤقتاً كذلك القيام الذي يعيشه المصري كل يوم في «عندما يغالبه النوم أمام التلفزيون أو وهو يذاكر أو وهو يستمع إلى أم كلثوم وهي تغني «يا رئيس امبارح ورئيس دلوقتي ورئيسي لبيكره ولاخر وقتي»، وما إن يروح في النوم حتى يصحو من نومه على يد أمه الطاهرة وهي تقول له: «قوم يا مصري.. نام في سريرك».



طرفية ذات خلايا قمعية يزداد تفرعها لتنتشر في جميع أنحاء البلد التي يحكمها، وتكون جاهزة لالتقاط الفرائس وإحكام القبضة عليها حسب الظروف المحيطة، يهاجر كل عام إلى أمريكا الشمالية وأوروبا والخليج العربي لجلب المعونات، يتكاثر ذاتيًا بشكل لا جنسي حيث يقوم بإنتاج أفراد جديدة منه تؤيد سياساته دون الحاجة إلى وجود ذكر وأنثى، وتقوم الأفراد الجديدة التي تحمل صبغته الكروموزمية بمهمة تصفية حساباته مع معارضييه.

يستخدم الرئيس في عملية التنفس أنقى أنواع الهواء التي توفرها له أجهزة تنقية الهواء في قصره، ويقوم بإخراج ثاني أكسيد الكربون الزائد من عملية التنفس إلى الشعب. لا يستجيب الرئيس للمؤثرات التي تستجيب لها معظم الكائنات الحية كالنباتات والحيوانات، فهو لا يتفاعل مع الضغط السياسي ودرجات الحرارة الشعبية وألوان الضوء المنبعث من إشارات الواقع الاجتماعي، وتفيد أغلب الدراسات العلمية أنه يفضل الاستجابة لضغوط عزرائيل أو أمريكا أيهما أقرب.

يشهد جسم الرئيس دائما تفاعلات أضية بسبب عمليات الهدم الناتجة عن قراراته، وينتج عن تلك التفاعلات الأضية فضلات سامة يقوم بإخراجها في أجهزة الإعلام لكي يتم تخزينها في الفجوات العنصرية للمواطنين، والتي تتعرض للانفجار البيضوني عندما تزيد الحمولة المخزنة منها على شكل بلورات تشريعية أو إعلانات دستورية سائلة.

يمر كائن الرئيس بعدة أطوار تشكل دورة حياته:

## دورة حياة الرئيس

(من دائرة معارف الحيوانات السياسية)

الرئيس: كائن سياسي هلامي رخوي إسفنجي آكل للأحلام ذو أنياب وقواطع، يعيش في كافة البيئات الصحراوية والزراعية والمائية ويمكن أن يعيش في الحارات المزدوقة، على أن يتم حفظه في درجة حرارة غرفة القصر الرئاسي، ينشط نهاراً ويتراجع ليلاً، ويتغير شكل خلتيه وتكوينها من حين لآخر، وقد تظهر له أيدٍ وأقدام كاذبة خلال حركته، وتتحور أطرافه الأمامية عند هبوب تيارات هوائية غاضبة من أمريكا الشمالية، موطنه الأصلي ينساه بعد أن يقضي وقتاً طويلاً في موطنه الجديد، يتغذى على تصديق الناس لوعوده وعلى خوفهم من التغيير، لا يصنع غذاءه بنفسه بل يتطفل على ميزانية الدولة، وبعض الأنواع منه تعيش معيشة البكتيريا المترمة، يفضل العيش في وسط يتلوى بمادة النفاقيزم القمعوبلازمية التي يكتبس بفضلها دروعاً تحميه من الهجوم والتغيير، يزيد وزنه بفضل عملية الشاق الضوئي بدءاً من مرور شهر على توليه لمنصبه ولا يتوقف عند ذلك المحطة عند وزن وحجم ثابت، يمتلك جسده القدرة على السباحة والقفز والاحتكاك، ويقوم دائماً بتكوين براعم



الطور الانتخابي: ويبدأ عقب الدفع به من رحم الحياة السياسية كبرقة رئاسية، وهنا تنشط غدد الرئيس في إفراز أكبر قدر ممكن من الوجود، وتظهر عليه تغييرات بيولوجية تجعل النور يشع من جبهته ووجهه، وتوسع ضحكته بشكل ملحوظ بفعل تمدد الغدد الانبساطية، وتحدث رقة فيسولوجية في نبضات صوته، وتصدر عن جسمه إشارات حرارية تجذب إليه الجماهير، ويكون في هذه الفترة قابلاً للاحتضان والتقبل والتمليس والحمل على الأكتاف والمصافحة من اللي يسوى واللي ما يسواش، ويكون موطنه الأصلي في هذه الفترة أستوديوهات الفضائيات والسرادات الانتخابية، وينتهي هذا الطور إما بتعرض البرقة الرئاسية للوفا بسكتة انتخابية، وإما وصولها إلى كرسي الرئاسة ليبدأ الكائن الرئاسي طوراً جديداً من أطوار حياته.

الطور اليميني: ويبدأ عقب إعلان نتيجة الانتخابات الرئاسية التي تخرج كائن الرئيس من مرحلة البرقة الرئاسية إلى مرحلة الفرخ الرئاسي؛ حيث يبدأ في التعرف على نفسه من خلال عملية اليمين الرئاسي التي يقوم بإلقائها، كما يبدأ في التعرف على موطنه الأصلي الجديد المعروف بقصر الرئاسة، وفي حين يحافظ على اتساع ضحكته ورقة نبضات صوته، تقل بشكل ملحوظ الإشارات الحرارية الجاذبة للجماهير فتضائل قابليته للاحتضان والتقبل والتمليس، وتصبح مصافحته مكفولة فقط للي يسوى، وتصبح خطيرة العواقب على اللي مايسواش، وتتحول غدد الرئيس في هذا الطور إلى إفراز نوع آخر من الإفرازات الكيميائية هو التصريحات، ويحدث تضخم في الجهاز الخطابي لديه؛ يجعله يصاب بحالة من الخطابة الإرادية.

طور الله في برسيمه: تختلف بداية هذا الطور من كائن رئاسي لأخر، فالبعض تظهر عليه أعراض هذا الطور بعد سنين طويلة من بقائه في الموطن الأصلي الجديد، والبعض لا يستغرق أكثر من أشهر لكي يبدأ هذا الطور، ويتوقف ذلك على عوامل التعرية التي يقوم بها الواقع الجيوسياسي على السطح الخارجي للكائن الرئاسي، تبدأ أعراض هذا الطور عندما يحدث اختلال في درجة التمثيل الضوئي في الخلايا الرئاسية؛ حيث تزيد كمية الضوء المسلطة عليه أكثر بكثير من كمية الضوء الخارجة منه، وفي هذا الطور تنعدم الإشارات الحرارية الجاذبة للجماهير، وتنعدم القابلية للاحتضان والتقبل والتمليس والحمل على الأكتاف، في حين تستمر إمكانية المصافحة لكنها تصبح عملية من مراحل معقدة بعد أن كانت عملية من مرحلة واحدة بسيطة، كما تحدث خشونة تلقائية متصاعدة في نبضات الصوت الرئاسي، مع ميل غريزي للتلويح بالسبابة في الخطابات العامة، والتلويح بالوسطى في المحافل الخاصة، وفي هذا الطور تطرأ تغييرات جينية على الخلايا الأذنية للرئيس فتصبح غير قابلة للاستجابة السمية إلا إلى أصوات معينة تحدث تأثيرات انبساطية عليه، وتزداد قوة ارتباطه بأطراف القمعية، ويدمن تحريكها بشكل مستمر، ويشعر برغبة حادة في الهرش عندما يتم منعه من تحريكها.

طور طرة: في أغلب الحالات تصل الكائنات الرئاسية إلى هذا الطور إذا اكتمل ظهور أعراض الطور السابق عليها، ويمكن ألا يصل الكائن الرئاسي إلى هذا الطور إذا تعرض لاختلال جيني يعرضه للفناء، أو إذا قام بعملية جراحية لإصلاح خلاياه السياسية النالفة وزرع خلايا حية جديدة، أو إذا قام في حالات نادرة جداً بتغيير موطنه

والعودة إلى موطنه الأصلي، أما أغلب الكائنات الرئاسية فهي تصل إلى هذا الطور بعد أن تفقد التواصل مع المؤثرات الخارجية المحيطة بخلاياها، ويزداد تضخم أطرافها القمعية بشكل يجعلها أكبر من باقي جسد الكائن الرئاسي، وفي بعض الأحوال تحصل حالة توحش جيني يجعل الأطراف القمعية تقوم بأكل الجسد الرئاسي، أما الحالات التي تنجو من الفناء فيتم إجبارها على التوطن بالحبس في بيئة قسرية تختلف ظروفها حسب علاقة الكائن الرئاسي بالأطراف القمعية التي انفصلت عنه وصارت كائنات مستقلة قادرة على التأثير، وفي هذا الطور تعود إلى الكائن الرئاسي الرغبة في الاحتضان والتقبل والتلميس والمصافحة، كما ينشط إفراز غدد من نوع آخر هي الغدد الدمية التي يزيد إفرازها بغزارة كلما تذكر الكائن الرئاسي فقدانه لكافة أطرافه القمعية وعدم وجود أي رغبة في احتضانه أو مصافحته من أي كائن سواء كان يسرى أو ما يسواش.

٢٠١٣

### شرم الشيخ وكفر الشيخ!

في مصر اليوم شيخان، تتجلى في صورتيهما الواقع الملتبس الذي تعيشه مصر. شيخُ شَرَم البلاد والعباد بتخبطه وعشوائية سياساته التي يتبع فيها منهج عبد الحليم حافظ «جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت.. ولماذا لست أدري.. لست أدري». وشيخُ كَفَر من الفقر والقهر والغُلب من حياته التي تسير طبقاً لمنهج فيروز «عشرون عاما وأنا أحترق الحزن والانتظار.. أنتظر الآتي ولا يأتي».

شَرَم الشيخُ البلاد بأسطوانات الاستقرار والبنية الأساسية والإصلاح التدريجي والريادة والدور المحوري والتوازن الخارجي؛ أسطوانات ظلت دائرة كما تدور كأس الموت على العباد، حتى كفر الشيخ الذي رأى ركوداً لا استقراراً ولم يفهم لماذا لا يكون الإصلاح شاملاً كالفساد، ولم يشهد ريادة إلا في التخلف والقمع والفرص الضائعة، ولم يعيش الدور المحوري إلا في طواير العيش بعد أن عَزَّ الغُموس، ولم ينشغل بالتوازن الخارجي كثيراً بسبب دوار رأسه من الاختلال الداخلي.

«شرمُ الشيخ وكفرُ الشيخ».. انحاز نظام مبارك للأولى فثارت عليه الثانية. لم تكن تلك مصادفة بقدر ما كانت رسالة تبحث عن قارئ

حضيف يعي ويدرك. منذ أسابيع قالها الرئيس وهو يرفض مشروع الجسر الحيوي بين مصر والسعودية، إنه لن يسمح لأحد بأن يعيث بشرم الشيخ، تصريح ربما لم يسمعه الذين ثاروا في كفر الشيخ؛ ربما لأنهم ناموا قبل نشرة تسعة لأن أجسادهم كانت منهكة من البحث عن المياه طيلة اليوم، ربما فضلوا أن يبحثوا في الوصلة عن ماتش أو تمثيلية أو كليب عار لكي يبلوا ريقهم الذي نشفه الفقر الجديد، وربما فضلوا أن يكتفوا بمشاهدة قناة الناس دون غيرها لأن باقي القنوات قد تستثير شهواتهم فتدفعهم إلى حميم البحث عن ماء الحوم، وربما شاهدوا التصريح عمدا أو صدفة فأجج فيهم السخط على ذلك الانحياز السافر إلى شرم الشيخ، فقصوا إليهم يسألون عن الذي يجعل العيب بشرم الشيخ حراما ويجعل العيب بكفر الشيخ جائزا إن لم يكن مستحبا.

دعك من كل هذه الرباهات. فالمؤكد الذي نعلمه جميعا هو أن سيدنا أباذر الغفاري ظهر أخيرا في كفر الشيخ: «عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاحرا سيفه»، وأهل البرلس في كفر الشيخ لم يجدوا ماء يومهم ولا أسبوعهم ولا شهورهم؛ فخرجوا على الطريق الساحلي شاهرين جرادلهم العطشى ومراكبهم المرهقة وفقرهم المدقع ووجوههم الشاحبة وأجسادهم المنهكة من فرط الإنجازات.

هل كانت مصادفة أن يحدث ذلك في محافظة يحكمها رئيس مباحث أمن الدولة السابق الذي رأى فيما فعله الناس إساءة لسمعة المحافظة، لكنه لم ير في سقمهم التراب وتمنيهم النجوم إساءة لكرامة الإنسان؟ هل هي مصادفة أن يسوق القدر إلى موقع ثورة العطاشى

مطرب الرئيس المفضل محمد ثروت دون غيره؟ هي رسائل القدر لا ريب ولكن من يقرأ؟

تتابع التفاصيل المتاحة عن الخروج الكبير في كفر الشيخ وتساءل نفسك: هل يصح أن يفرح المرء بخروج كهذا؟ تكون كاذبا لو قلت: نعم على إطلاقها، من بالله عليكم يفرح أنه يعيش في غابة؟ لكن هل العيب على من قرر أن يأخذ حقوقه غلايا، أم على من منع نيل المطالب وقبلة منع التمني؟

تهرب من أسئلتك المفزعة متقافزا بين القنوات؛ فتكتشف أن الرئيس مبارك لم يحث أبدا بوعده تحقيق المساواة بين المصريين جميعا. في برنامج (٩٠ دقيقة) يشكو ثري يملك فيلا في مدينة الشروق الجديدة خالص بأنه اضطر لشراء عربية مياه بخمسة وسبعين ألف جنيه لكي يستطيع أبنائه الخمسة أن يستحموا قبل ذهابهم إلى جامعاتهم، وفي برنامج (القاهرة اليوم) ثمة تقرير قبله يفضح بالصورة كيف تحفر نساء كفر الشيخ الرمال بأيديهن لتخرجن المياه الجوفية التي تلغ فيها الكلاب؛ لكي يشرب أبنائهن الرضع منها مياهها ستفتت أكبادهم وتتحرق كلالهم التي لن يستطيعوا حتى بيعها بعد ذلك، بينما في الوقت ذاته يرف جمال مبارك إلى المصريين بشرى تخطيطه لمستقبلهم المشرق الآتي في عام ٢٠٥٠، قبل أن يتوقف قليلا لكي يبلع ريقه ويصب كوبا من المياه.. المعدنية ويشرب في صحة الشيخ الذي شرم؛ لأن الشيخ الذي كفر من العطش لا بواكي له ولا بواكي عليه.

ربنا يبل ريقك يا مصر.

كده غياب المواجهة الفكرية والثقافية والاكتفاء بالمواجهة الأمنية  
هيودينا كلنا في داهية». قال ذلك فنظرت إليه كما ينظر غريقٌ ليد  
«مَدَّت من شباك الموح»، وقبل أن ينس فمي ببنت لثة، عاجلني  
بسؤال لم يكن يقصد به الاستفهام، بل كان يقصد به التمهيد للضربة  
التي ستجهز على فرحتي بكلامه: «إنت عارف إيه المنهج الوحيد  
اللي ممكن نمشي عليه دلوقتي ويحل لنا مشكلة الإخوان للأبد؟»،  
مجبيا على الفور: «منهج الشهيد سيد قطب ما فيش غيره».

### يهده العبت!

كانت تجربتي معه مريرة، لكنها جعلتني أتمثل الحالة النفسية التي  
عاشها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان عندما اكتشف تسرعه في احترام  
ذلك الرجل المهيب الذي دخل عليه حلقة العلمية، فأجبره على أن  
يشي رجله احتراماً، لكن الهراء الذي سرعان ما تدفق من فم الرجل  
جعل أبا حنيفة يقرر أن «يمد رجله ولا يبالي»، وهو ما لم يكن سيكتفي  
به قطعاً لو كان قد التقى بذلك «المهيب» الذي ساقه لي حظي العثر.

لم يكن ما جعلني «أستهيئه»، صوته الفخيم ولا وجهه الوقور  
ولا شعره الأشيب الذي يقوي تأثير نظارته السوداء، بل مبادرته  
لتعريف نفسه بأنه المهندس فلان، رجل أعمال مقيم بالخارج منذ  
ربع قرن، وصديق قديم لشخصية رائعة أحبها واحترمها، وإيماني  
بأن «من جاور السعيد يسعد»، جعلني أقرر ألا أقطم معه في الكلام  
لعلي أسمع رأياً أنفع به، خاصة أن «دخلته» التي بدأ بها التعليق على  
أحداث الساعة كانت خاطفة.

«أنا بصراحة شايف كل اللي بيحصل دلوقتي عك بيعقد المشكلة  
بدل ما يحلها؛ لأن أساس المشكلة مع الإخوان فكري وعشان

حتى حلقي المتعود على التحرك تلقائياً في صدمات كهذه،  
بوغت جذوره السكندرية، و«تليمتي» جعلت السيد المهيب يظنها  
طلباً للاسترسال ورجاء بالإفاضة، فأنهمر قائلاً: «سيد قطب وحده  
اللي هيساعدنا نقضي على فكر الإخوان المنحرف... إنت عارف إنه  
دخل الجماعة عشان يطهرها من فكر حسن البنا.. لكن هتقول إيه في  
الماسونيين اللي مش سايبين مصر في حالها؟ عشان كده قتلوه، ومن  
ساعتها والبلد بتسيطر عليه الماسونية سواء عبد الناصر ولا السادات ولا  
مبارك ولا مرسي كل دول ماسونيين، وللأسف الإعلام سايب مواجهة  
الماسونية لناس تافهة بتشغل الشعب عن مخططاتها بمعارك عبيطة زي  
حكاية أبلة فاهيتا، حضرتك ساكت ليه إنت مش متفق معايا؟».

كان الجسد قد امتص صدمته الأولى، وكان العقل قد أخذ لفة  
سريعة في «فايل» الضلالات الفكرية التي تروج في البلاد، وكانت  
الروح قد أدركت أنه لا بُد مما ليس منه بُد؛ لذلك هربْتُ إلى العبت  
وحده انقاء لنقاش لا طائل منه فقلت له: «أولا موضوع أبلة فاهيتا  
مش عبيط وإنما خطير جداً، ثانيا موضوع سيد قطب في ناس كثير زي  
حضرتك مقتنعة بأن الحل في سيد قطب وكتابه معالم في الطريق».

توقعت أن يعلق على اسم الكتاب الذي اختصصته بالذكر، لكنني فوجئت به يقول بجدية شديدة: «فين؟ أنا باتابع الإعلام مش شايف ده خالص»، فاكثفت بأن أقول: «أصل دول ما يبطلعوش في الإعلام على طول، بس بتسمع عنهم بعد كده».

بدا أن كلامي لم يثر فضوله أبداً؛ لأنه اختار أن يسألني عن سبب خلافي معه في موضوع أبله فاهيتا، فأجبته بلامح جادة: «للأسف الناس ركزت على الأبعاد السياسية لأبله فاهيتا، وده أصلاً ملعوب ماسوني عشان يشغلنا عن الهدف الأخطر منها اللي هو استخدام الدمية دي في نشر الشذوذ الجنسي وتدمير الطابع الأصيل للأسرة المصرية». كنت أنتظر أن ترسم على وجهه ملامح الاستغراب، لكنني وجدت بدلاً منها ملامح التأييد التي لا تمنع في أن تتحول بعد «زقة كمان» إلى ملامح انبهار، فأكملت قائلاً: «هل حضرتك لاحظت إنه من ساعة ما طلعت الدمية دي ما قالتش أبداً هل هي فاهيتا لحمه ولا فاهيتا فراخ؟ ده مش معمول عبثاً وإنما عشان يتم نشر اضطراب الهوية الجنسية والشذوذ واليونيسكس؛ اللي هو أنا أسف في اللفظ ممكن يخلي الواحد يضاجع نفسه بنفسه من غير ما يضطر ينزل الشارع يوم الخميس الظهر».

لمست في ملامحه نبرة تردد في تقبل ما قلته، فأدركت خطئي في تجويد العبث، وقررت أن أعود لانسائية العبث، فقلت: «هل حضرتك لاحظت الرسائل اللي عايزين يوصلوها بإن أبله فاهيتا تطلع أم عازية أو سينجل ماذر زي ما بيقولوا الخواجات.. وإنها ترفض تطبيق الشرع فتتجاوز بعد ما خلصت شهور العدة بدل ما تربى بنتها بعيداً عن إطار الأسرة زي الشواذ؟ للأسف كل دي مؤامرة

هناك للأسرة المصرية اللي هي المنجز الحقيقي لينا.. إحنا بنحاك هدم.. بنحاك كل يوم وكل لحظة.. وطبعاً إحنا لا حيلتنا تكنولوجيا ولا صنيع ثقيل ولا تقدم علمي، ماحيلتناش غير الأسرة لو باظت هنعش من غيرها إزاي.. يعني مش الشاب هيتدمر لما يلاقي أمه انثرت بنموذج أبله فاهيتا وسابت البيت عشان تعيش مع صديقة لها عازية ويقعدوا عالوية يشدوا مع باقي الأمهات.. عارف لو أبوهم قرر يصاحب زميله في الشغل عادي الشاب هيفرح؛ لأن البيت هيفنى وهيرتاح من وجع الدماغ.. إنما كله إلا الأم المصرية اللي هي مخططة تدميرها من ساعة ما رحنا مؤتمركين لو حضرتك فكره، الله يلعنهم بقى اللي كانوا السبب».

فوجئت به يهب من كرسيه نحوي، فبدأت تحضير نفسي لاشتباك أهد فيه قدمي ولا أبالي، لكنني فوجئت به يحتضني كأنني جندي هالد من الجبهة، قبل أن يقول بصوت متهدج: «يا ريت كل الناس اللي يبطلعوا في الإعلام بالوعي ده»، فجعلتني نبرة صوته الحميمة الشفق عليه، لأقول ناصحاً ومبرحاً ذمتي: «ربنا يخليك يا قندم.. أنا بس أشعني رأيك في سيد قطب بلاش تقوله لأي حد.. عشان مش أي حد هيصدق إن فكره كان هينقذنا من الإخوان.. الإعلام للأسف ملخبط هماغ الناس وممكن يفهموك غلط، وسوء الفهم دلوقتي للأسف بقى هيه خمس سنين»، إحساسه بصدق تحذيري جعله يهز رأسه مقلباً الكلام فيها، قبل أن يقول بصوت متهدج: «عندك حق والله، هي أيام سودا ربنا يعدينها منها على خير»، وأنا وهو هتفتنا من أعماق قلوبنا «لما تهتف أنت الآن: «اللهم آمين».



### نفس خاماة الكرسي

كانت تلك الليلة الأولى التي يبيت فيها الرئيس الجديد في مقر إقامته بداخل القصر الرئاسي، لم تمض دقائق على دخوله إلى غرفة نومه وبدأ حرسه في الاستعداد لساعات من الراحة بعد يوم مرهق طويل، حتى فوجئ الحرس به يخرج وقد ارتدى «تريننج» عجيب الألوان ظل شكله مثارا للتندر بينهم لفترة، فوجئوا به يطلب منهم الخروج بصحبته إلى «فرن إفرنجي» قريب من القصر قال لهم إنه كان زبونا له من زمان. لم يكن لديهم خيار سوى الاستجابة لرغبته الملحة في الذهاب رغم أن الساعة تجاوزت منتصف الليل بكثير. ظن بعضهم أن المشاور وراءه «شو إعلامي» وأنهم سيجدون مصورين في انتظارهم أمام الفرن، لكن ذلك لم يحدث، واتضح أن الأمر ليس وراءه سوى رغبة بريئة من الرئيس في التصرف كمواطن عادي يعيش السكوت أبو عجوة؛ ربما لكي يؤكد لنفسه أنه لن يتغير أبدا، وهو ما كان يدفعه للكثير من التصرفات التلقائية التي أرهقت طاقم حراسته خلال الأيام الأولى من رئاسته، ودفعت الجهات الأمنية السيادية إلى تكرار تنبيهه إلى المخاطر التي يمكن أن يحدثها ذلك.

في الزيارة الأولى التي قام بها عدد من الكتاب والإعلاميين إلى

مصر الرئيس شكوا لهم أنه تم اليوم قطع المياه عنه عمدا فلم يكمل وضوءه، واضطر للتدخل بنفسه لكي يتم إعادة المياه إلى القصر. ثانت الواقعة مجرد مثال على حالة من العدائية المبطنة التي كان يشعر بها موجهة ضده من العاملين بالقصر؛ وربما لذلك كان يجد الرئس في صحبة القادمين معه من الخارج والذين كانوا يساعدونه على فك شفرات القصر، وتقسيم العاملين فيه إلى قوائم تضم المتعاونين والمتباطئين والمشكوك في أمرهم والميئوس منهم؛ تمهيدا للتعامل مع كل منهم بما يقتضيه الأمر من تدليل أو ترغيب أو إبعاد أو ترهيب. كانت تتملك الرئيس في تلك الأيام حالة من الحذر الشديد جعلته يحضر الاجتماعات التي تنعقد مع كبار رجال الدولة وهو يحمل طبنجة في حزامه، انكشف ذلك عندما عبر ذات مرة بوابة إلكترونية مثبتة في باب وزارة مهمة فأصدرت البوابة صوت تنبيه جعله يشير بتلقائية إلى الطبنجة، لتصبح الواقعة مثارا لتندر قيادات الجهاز الذين تساءل بعضهم حول مدى سرعة الرئيس في استخراج الطبنجة من مكانها إذا وجد نفسه عرضة للاغتيال.

بعد فترة وجيزة من توليه مقاليد الحكم وأثناء سيره في طرقات القصر، توقف الرئيس عند غرفة خالية تجاور مكتبته الرئاسي بها طاولة فخمة وأربعة كراسي أشد فخامة، كان باب الغرفة مفتوحا ربما بالصدفة؛ ولذلك لفتت انتباهه ودفعته لأن يسأل أحد كبار العاملين بالقصر: لماذا لا يتم عقد الاجتماعات في هذه القاعة الملائمة للمكتب؟ بعد لحظة ارتباك رد عليه موضحا أن هذه الغرفة ليست قاعة اجتماعات بل هي غرفة طعام تم توظيفها خصيصا بناء على رغبة الرئيس السابق لكي يشاركه الغذاء فيها زوجته وابناه، وأن هذا



هو سر وجود أربعة كراسي فقط برغم ضخامة الطاولة. أخذ الرئيس ينظر إلى الغرفة متفحصا، شعر مساعده بالقلق للحظة وخشي أن يكون قد أخطأ لأنه لم يلقب الرئيس السابق بالمخلوع، لكن أفكاره قاطعها صوت الرئيس وهو يقول له إنه من الغد يريد أن يُضاف إلى هذه الطاولة كرسي جديدة تلائم عدد أفراد أسرته لكي تتمكن الأسرة من مشاركته الغداء قبل أن يرفع إصبعه مشددا: «بس عايز الكرسي الجديد تكون من نفس الخامة اللي معمول بيها الكرسي دي».

احتار المساعد في فهم سر ذلك التأكيد، حتى استراح لتفسير زميل له بأن الرئيس لا زال على ما يبدو مستاء من الأجواء غير الودودة التي شعر بها في بداية دخوله إلى القصر، وأنه لا يريد أن يشعر بأنه أقل من سابقه، حتى لو كان ذلك بدعوى الحرص على التقشف وضغط النفقات.

بعدها بفترة، وخلال زيارة خارجية للرئيس إلى عاصمة عربية، وبعد أن أثنت الصحف ووسائل الإعلام على قرار أسرة الرئيس بأن تسافر على نفقتها الخاصة دون أن تصحبه في طائرة الرئاسة، فوجئ المرافقون للرئيس باتصال ليلي يطلب منهم اصطحاب أسرة الرئيس إلى المطار الذي تقبع فيه الطائرة الرئاسية، ظن بعضهم أن هناك رغبة من الرئيس في تسفير أسرته مبكرا على طائرة الرئاسة لوجود ظرف خاص، وأخذ الجميع يضربون أحماسا في أسداس، قبل أن يُتَبَيَّن في نهاية المطاف أن الأسرة كانت راغبة فقط في رؤية طائرة الرئاسة من الداخل وتفقددها، وبدأت تُروى في الأروقة نوادر عن حالة الانبهار التي أصابت ليلتها بعض أفراد الأسرة والتي وصلت إلى ذروتها عندما اكتشفوا وجود «جاكوزي» في حمام طائرة الرئاسة.

الآن وبعد مرور كل هذا الوقت، لم يعد الرئيس يخرج إلى الفرن  
 لم يعد يفاجئ حراسه بأي زيارات مفاجئة تخرج على الخطة الأمنية  
 السعددة سلفا، لم تعد المياه تنقطع عنه وهو يتوضأ لأن المقيمين معه  
 أهل القصر أصبحوا أقرب إليه من كل الموجودين خارجه، خاصة  
 بعد أن اختفت تماما كل مخاوف الإنفاق في ميزانية الرئاسة  
 وكافآت العاملين بها، لم يعد يلتفت لما يثار في الصحف ووسائل  
 الإعلام حول مظاهر الفخفة التي تظهر عليه وعلى أسرته، لم يعد  
 يعرض على الموكب الرئاسي الضخم الذي كان يثير تمللمه في  
 البداية، لم يعد يخشى من قادة الأجهزة الأمنية فقد أصبحوا الأقرب  
 إلى أذنيه وعقله بكل ما يحملونه إليه من تسجيلات وتحذيرات  
 ومخوفات، باختصار لم يعد الرئيس الجديد يجلس فقط على نفس  
 الخامة الكرسي الذي كان يجلس عليه الرئيس السابق، فقد أصبح هو  
 نفسه رئيسا من نفس الخامة.

يناير ٢٠١٢

لأنه أنا وصلت بيا إني قريت ما كافيللي.. آه والله زي ما باكلملك  
 إنت عارف ساتالين بتاع روسيا لما مسك الحكم أعدم كل  
 أعضاء الحزب الشيوعي.. آه قتل له بتاع خمسة وعشرين مليون،  
 المقابل بنى روسيا الحديثة وما كانش حد غيره يقدر يهزم  
 أمال إيه؟ بص يا باشا مرسي ده عليه غباء سياسي ما حصلش..  
 وهاقولك على حاجة تدلل لك على كلامي».

قلت، حريصا على ألا يظهر تغيير ما في نبرتي عما سبق: «والله  
 يا أسعلى هو كلامك مش محتاج دليل خالص، بس برضه لو عندك  
 حاجة إضافية مش هيخسر أبدا». قال لي بحماس من عقد العزم على  
 إيهاري: «فاكر يا باشا لما طلع مع الجعد اللي اسمه عمرو الليثي،  
 حكى حكاية الطفل اللي مسكوه بيحدف مولو توف وأمه قالت لهم  
 إنا في حد إداها ميتين جتبه عشان يروح يحدف مولو توف؟ ومرسي  
 قالت: أنا لما عرفت ده قعدت أعيط.. طب ده اللي يدلك على الغباء  
 السياسي.. صح ولا لا؟»، قلت: «هو مش بس ده اللي يدلك على  
 الغباء السياسي، في أمثلة أقوى من ده بكثير»، قاطعني: «لا مش  
 المفسد، إنت فهمت إيه مشكلتي مع الحكاية دي بالذات؟»، قلت:  
 «بعتي أنا مشكلتي إنها حكاية ممكن تكون متألفة أساسا، ومرسي  
 لا شاف الواد ولا أمه أساسا، واللي حكاية هما الأجهزة الأمنية  
 عشان يقتعوه إن كل دي مؤامرة عليه، وما فيش حد بيعارضه ولا حد  
 مضايق من الإعلان الدستوري». ارتبتك للحظة لأنه لم يكن قد فكر  
 فيما قلته، لكنه عقد العزم على مخالفتي لإيضاح نقطته التي غابت  
 عن فطنتي قائلا بحماس: «لا، أنا بقى يا سيدي هاصدقه وهاقول إنه  
 قابلها.. بقى إنت ست تحكي لك حكاية زي دي تقوم تعيط؟ هو أنا

## على «تاكسي» في الشارع السياسي

«يا فرج الله، أخيرا لقيت سواق تاكسي منقوعا من أم رأسه حتى  
 أخمص قدميه في بحيرة الوعي السياسي».

هكذا قلت لنفسي وأنا أستمع إلى شلالات الحكمة وهي تتدافع  
 للخروج من فمه: «يا بيه، مبارك إيه ومرسي إيه.. واحد مانا من على  
 سطح الأرض والثاني دفئا تحت سطح الأرض.. مش معنى إن عهد  
 ده زبالة إني أجنّ للعهد اللي أزل.. أنا مش فاهم الناس اللي تقولك  
 مبارك كان أرحم، عشان كان بيسرقنا بس ما كناش حاسين بحاجة..  
 أيوه عامل زي اللي بتقولك: اغتصبوني بس كنت متكيفة.. يبقى  
 سيادتك ولا مؤاخذه شرشر مش مغصبة بقي».

لاحظ إعجابي الشديد بما يقوله فقرر أن يعطيني نبذة مختصرة  
 عن خلفيته السياسية؛ لكي أنقله من خانة رجل الشارع الواعي إلى  
 خانة الواعي الذي شاعت الظروف أن يكون رجل شارع، ويا ليت  
 ما أعطاني تلك النبذة التي بوخت حماسي له قليلا: «خد بالك يا  
 أستاذ فضل، أنا قاري سياسة لما قلت يا بس.. أنا كنت في الأردن  
 عشر سنين على فكرة.. وبعدين أنا مش هاقولك قاري جرايد وكده..

جايك ريس عشان تعيط؟ أنت كنت تقول لها الراجل إذاكي ميتين جنبه عشان ابنك يحدف ملا توف، أدي خمسميت جنبه أهم إديني أم اسم الراجل ومواصفاته عشان أجييه من قفاه وأمر مط أمه.. صح ولا يا باشا؟».

كانت قد أعجبتني جملة «هو أنا جايك ريس عشان تعيط؟»، فقررت أن أحسب له الإجابة كلها صحيحة، وقلت له: «مئة مئة يا أسطى، الله ينور عليك». شعر أن حجم انبهاره به ليس كافيا فقرر أن يزيد من «الدوز» قائلا: «إنت عارف يا باشا إيه اللي جانبنا ورا؟ الإتناشر مرشح اللي كانوا نازلين قصاد مرسي.. يعني بروح أهلك منك ليه، عارف إن في واحد إخوان نازل قصادك ماكتو تتكتلوا إيد واحدة ورا واحد محترم زي عمرو موسى.. مش كده ولا إيه يا باشمهندس؟». لاحظ علامات الامتعاض بادية على وجهي فقال: «شكلك مش عاجبك كلامي.. وتلايك عايز تسألني: إشمعني عمرو موسى بالذات؟ أنا أقولك: أصل عمرو موسى ده أهم ميزة فيه إنه رجله والقبر.. يعني ماكانش هيخلد فيها.. كان هيجي عشان يختم حياته ختام مشرف ويمشي عدل ويراضي الشعب، وفي الآخر كان شباب الثورة هيعملوا أحزاب ويقوا أقوياء سياسيًا، وعلى ما ييجي معاد الانتخابات الجاية يبقى في واحد منهم بقى ينفع رئيس».

كان يتحدث بثقة مذهشة جعلتني أسأل نفسي للحظات: «كان ماله عمرو موسى صحيح؟ ما كان أرحم من مرسي والله»، وهو لم ينتظر أن أرد عليه بل طفق وما انفك وما فتى وواصل تحليله السياسي الذي أنقله بنص عباراته التي ستظل محفورة في ذهني إلى حين حفرها في ذهني: «مش كان عمرو موسى أرحم من شفيق؟ على فكرة أنا كنت

شفيق من الأول مش عشان فلول وفاسد والكلام ده أنا ماليش في الكلام ده.. أنا حصل لي توجس سياسي من شفيق من ساعة ما وافقني (أشغل مع مبارك رئيس وزارة بعد ما الشعب نار عليه.. يعني إنت راجل بقى ما عندكش دماغ سياسي أصلا، أجبك رئيس إزاي وتقدر مع الصهاينة اللي الواحد فيهم بيحكمك في حاجة وهو بيخيطك في حاجة تانية؟ هي دي مشكلة شفيق معايا.. بس منهم لله ولاد الوسخة اللي طلعو على عمرو موسى حكاية إنه صاحب مزاج.. إحنا مالنا والله، إنشالله يبقى فيه العبر.. أنا مالي بحياته الشخصية لو هيحكميني صح.. ده رينا سبحانه وتعالى قال إيه في القرآن؟ وقالوا ثلاثة رابعهم أنهم وقالوا أربعة خامسهم كلبهم؛ أنا أسف يعني مش فاكتر الآية مضبوط بس في آخرها: ﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُ يَعِدُهُمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.. يعني رينا نفسه يقول: أنا الأعلم، يقوم ييجي ناس ولاد كلب يقولك: عمرو موسى يشرب كحولات من أيام ما كان صغير.. مع إن الراجل باين عليه طول الوقت إنه راسي وعافل ولا يمكن يغضب رينا وعمرنا ما شغناه بيهرتل في الكلام أبدا.. آدبهم لبسونا في اللي مالهمش غير في سوريا والخروب وهيفتقونا كلنا يا أستاذ فضل.. أنا أسف يعني ما تزعش مني.. الناس دي مش بس هترجع الخلافة، لا هيرجعوا العصر الحجري كمان.. أيي ابتدت بقطع الكهرباء وبعد كده البنزين وبكره العربية اللي ماشية بالغاز دي؛ أشحت عشان ألاقى غاز أمشي بيها.. وهكذا بقى يعني مش بعيد الشهر الجاي تركب معايا تلاقيني لافف حته قماش عشان أغطي بيها بتاعي.. وأخذ منك الأجرة بالزلط بدل الفلوس، وكل ده عشان شوية ولاد كلب طلعا إشاعة حكيرة إن عمرو بيه موسى صاحب مزاج».

كان لا بد أن أطلب منه تغيير الموضوع لكي لا أبكي ندما على ضياع فرصة حكم عمرو موسى لمصر، سألته: «إنت متين يا أسطى؟»، فهم الرسالة جيدا وبدأ يحدثني عن نفسه. ولد في باب الشعرية وترعرع في شبرا ويقضي حياته الآن في بولاق الدكرور، لديه ابن كبير يخدم في موقع ما في الجيش وابنة متزوجة وابن في دبلوم تجارة وبنيت في ثالته إعدادي، ترك الأردن عن اقتناع لأنه يحب مصر، دون أن يجيب عن سؤال استنهامي لي حول العلاقة بين حب مصر وترك الأردن عن اقتناع، في الأردن كان يعمل سائقا لعائلة «أرستقراطية»، لكنه قرر أن يعود إلى مصر بعد اكتشافه أن «لسان الواد الكبير ابني إتوج وبدأ يحكي أردني».

وبعد تنهيدة عميقة طلق يقول لي وهو لا يحاورني: «بنحب البلد دي يا باشمهندس نعمل إيه بس.. صفيحة زبالة كاتبين عليها من بره: سبعة آلاف ستة، بس بنحبها.. عشان شعبنا جميل ومهما لقيت الدنيا مش هتلاقي زيه أبدا.. بس هو مبارك ابن الذين اللي جابنا ورا.. كان عنده عشر حاجات لو كان ركز فيهم كنا بقينا ولا ماليزيا وسنغافورة دلوقتي»، لم يكن ممكنا أن أفوت فرصة معرفة الحاجات العشر فسألته عنها، فقال لي: «اللي أنا فاكرو منهم دلوقتي ستة.. العمالة الخارجية اللي كانت في الدول العربية.. ما استغلش الحرامية اللي في البلد صح»، كان لا بد هنا من وقفة للاستيضاح فقال موضحا: «يعني البلد لما مسكها كانت مليانة حرامية من أيام السادات، ده غير الحرامية اللي جم في عهده.. كان يتفق مع كل واحد فيهم ويقول: بص خد خمسين في المية أرباح ليك، واديني عشرين في المية، وأدي تلاتين في المية لمصر.. إنما هو كان يقسم النص بالنص؛ فالبلد ما طلعش بحاجة بعد

الليلة دي.. مش كان أحسن ساب الريان والسعد وقسم معاهم بلد ما البلد ما خدش منهم حاجة؟ تالت حاجة طلع لقي عنده أمريكا.. سبنا ما عرفش يستغل الحكاية صح.. حذف على أمريكا بس.. مش زي الجهد العظيم أنور السادات اللي نشف ريق الأمريكان وقعد بالأعهم بالروس لحد آخر يوم في عمره».

لم يكن مجديا أن أحدثه عن أن السادات هو من ابتدع حكاية ٩٩ في المائة من أوراق اللعبة في يد أمريكا، وأنه قطع علاقات مصر مع السوفييت وطرده الخبراء السوفييت من مصر شر طردة، فالرجل يحتاج إلى أن يعيش بالمنطق المتناسك الذي يسنده في الحياة، وأنا أحتاج إلى أن أسمع حكايات ممتعة أكثر من رغبتني في سماع تحليلات «سيئة كالتي بدأ يركز عليها.. تغاضيت عن شغفي في معرفة الأشياء الثلاثة الباقية التي يتذكرها من الحاجات العشر التي جعلت مبارك يفتع فرصة عمره لإصلاح حال البلد.. وقررت تغيير الموضوع، قلت له: «هي دي عربيتك يا أسطى».

سحب شجرة خفيفة لا يتجاوز قياسها اثنين ريختر في أحسن تقدير بحيث لا يمكن اعتبارها كإهانة أو تجاوز، وقال لي: «هو لو عندي عربية، أنزل أبهدل نفسي في أم الشوارع دي؟ كان زمني قاعد في البيت باقلب في الدش، وممرط واحد مكاني زي ما صاحب العربية يمرطني».. قلت له: «عندك حق الشوارع بقت صعبة قوي».. أضاف: «إنت مكسوف بقي تشتم وكده عشان أنا عرفتك ومش عايزني أقول للناس: بلال فضل اللي يطلع في التلفزيون ده لسانه زفر أصلا؟ صعبة إيه يا عمنا، قول: بنت مرة.. بنت زانية.. سم الأشياء بمسمياتها يا باشا».

ارتجت العربية من ضحكي بينما قرر هو أن يشاركني في ذكرى أليمة حدثت له منذ فترة قصيرة: «أنا أصلاً بقالي ثلاثين سنة غير العشرة بتوع الأردن باشتغل بالليل.. كل يوم باشتغل من اتناشر بالليل لسته الصبح.. شغل الليل ده آخر عظمة.. لغاية من كام شهر كده إنت عارف المثل بتاع ما يوقع إلا الشاطر.. وقعت ولا حدش سمى عليّ.. ثلاث عيال من دور ولادي ثبتوني على الدائري.. كان شكلهم غلط من ساعة ما وقفوني في ميدان لبنان.. بس بيني وبينك طمعت.. كان الشغل معقرب يومها قلت: ربنا هو الحافظ.. فجأة يا سيدي واحنا على الدائري الآقي واد منهم خانقني بتلفيحة من ورا والثاني غازز المطوة في جيبني.. أنا كل اللي شفته ساعتها يا باشا هو منظر صاحب العربية وهو يبسلمني للبوليس بورق الضد اللي كاتبه عليّ عشان يأمن عربيته.. عمره ما كان هيصدق إن العربية اتسرت.. ده أنا بينضرب بيا المثل في الذكاوة والدماغ الصاحية.. كان هيقلوك: آه ده طمع في العربية ونصص مع اللي سرقوها.. إنما لاجل رضا ربنا عليّ طلوعا التلاته ما لهمش في حوار سرقه العربيات.. عايزين فلوس وبس.. طلعت لهم مية جنيه كنت عاملها طول اليوم وقلت لهم: خدوها.. قالوا لي: فين الموبايل؟ أنا بازنقه كده في حته على شمالي مش عارف ليه عادة اتعودت عليها.. قلت لهم: مامعيش.. ربنا ستر ما حدش رن كانوا قتلوني.. بيني وبينك مش عارف عملت كده ليه؟ هو أصلاً بكرتوته كان عامل مية وخمسة وتلاتين جنيه.. أنا ماباحش أجب موبايلات غالية.. وكل استخدامي في الموبايل: آلو، أيوه، سلامو عليكمو، مع السلامة.. نزلوا وسابوني وأنا عمال أتشهد وأسجد في الأرض من الفرحة.. رocht وقلت: بس اكتب

لي عمر جديد مش هاسوق بالليل ثاني أبدا.. كان عندي أمل في ابن الدنيا اللي حكمانا ده إن ربنا ياخذ بيده ويعدل حال البلد ويرجع لنا الأمن.. عارف لو كان بس عمل حاجتين: رجع الأمن، وحافظ على الأسعار، ده كان يأخون ويدقن ويزبب.. من زبينة يعني ولا مؤاخذه.. بعسل اللي على مزاجه هو وجماعته.. إنما هتقول إيه؟ حفظنا وحش يا به.. إنما رأيك هيحصل إيه اليومين دول يا به؟»

قلت له: «والله ما عارف يا أسطى.. إنت بإحساسك كده شايف هيحصل إيه؟».. قال لي: «أنا شايف إنهم هينفضوا يا به لغاية ما يخش رمضان، وعارفين إن الشعب مالوش في الثورة في الحر والصوم.. ويتوع جبهة الإنقاذ مش ماليين عينين الناس، وبصراحة ما تزعش مني هما عايزين ضرب الجزم هُما والإخوان والفلول»، قلت له وأنا أشير بيدي لمكي يتوقف وينزلني: «لا وازعل منك ليه؟».. «أم الإخوان على أم الفلول في ساعة واحدة»، صفق بيدي بسعادة شديدة: «حلاوتك كده يا أستاذ فضل جاي تسخن معايا في الآخر ده.. مش كنا اتكلمنا في التسوان أحسن بدل السياسة ووجع القلب؟».. «لي عنك خالص النوبة دي.. والنبي ربنا هيكرنا آخر كرم وبكره هنتكر الأيام دي ونضحك لما نقول بس، وإحنا بنسال نفسنا: كنا مستحملين كل الخرا ده إزاي؟ نهارك قل يا برنس».

٢٠١٣ مايو



قال لي: لأ، بس لو اللي نازلين شالوا الإخوان هاغني لهم من  
قلمي غنوة أنغام «شلتوا عن عيننا الستاير وإحنا ليكو ممنونين»، ولو  
شالوا هاغني لهم من قلبي غنوة حمادة هلال الجديدة.

قلت له مستغربا: أنهى غنوة؟

قال لي: شهداء ثلاثين يناير ماتوا في أحداث يناير وفضل منهم  
شوية عاشرين ماتوا في أحداث يونيو. (بالمناسبة محاورى ليس  
ساهلا بالمرّة كما قد تظنه، بل هو رجل متعلم يستند في موقفه  
السياسي إلى نظرية بيولوجية متكاملة مفادها أن الصرصار أعظم  
مخلوقات الله؛ ولذلك فهو يؤمن أن هناك جنة ونارا مخصصتين  
للمخلوقات، وأن الصرصار سيدخل الجنة بينما الديناصور سيدخل  
النار لفشله في البقاء على قيد الحياة).

بعد أن رحل عن القهوة أخذت أفكر فيما دار بيننا من حوار، لكنني  
لم أهنأ بلحظات الهدوء حتى قاطعتني رجب الجرسون قائلا: إنما  
إيه اللي هيحصل في ثلاثين سته يا برنس؟ رددت برغبة حقيقية في  
«علم الحوار: العلم عند الله. تجاهل رغبتى برغم وضوحها عاجلني  
بأسئلة متلاحقة: «يعني مين اللي هيخطيط المرة دي؟ الثوار هيخططوا  
الإخوان، ولا الإخوان هيخططوا الثوار، ولا الفلول هيخططوا الاثنين،  
ولا الجيش هيخططهم كلهم ويرحمنا؟». (لكي تصل إلى فهم حقيقي  
للأسئلة، ينبغي أن تعلم أن رجب من معتقي الأفكار الفرويدية بشكل  
واضح وصريح يجعله يعتقد أن الحياة ليست إلا تخايلا جماعيا بين  
الناس، هو الذي يؤدي في النهاية إلى تقدم حركة التاريخ).

قلت له وقد فقدت رغبتى في النقاش: باقولك إيه يا رجب؟ أنا

## من محاورات قهوة الكراسي البيضاء

قال لي: يا أستاذ باقولك فكرة حزب الكنبه مذكورة أصلا في  
القرآن.

قلت له: إزاي دي بقى؟ اوعى تقولي في آية «فَأَمْشُوا فِي مَنَازِكِهَا»..  
مثلا يعني؟

قال لي: لا ودي تيجي برضه يا أستاذ؟ أنا مش جاهل، فكرة  
حزب الكنبه مذكورة في آية «فَأَذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا  
قَتِيلُونَ»، كنبه دي ولا مش كنبه يا برنس؟

قلت له دون أن أتورط في أي مناقشة جادة لما قاله من عبث:  
يعني معقولة كل اللي حصل في البلد خلال الستين والنص اللي  
فاتوا، ما قدرش يحرك جواك أي رغبة إنك تنزل بنفسك للشارع  
بدل مانت قاعد تحذف طوب من لسانك على الكل وتشتم في كل  
حاجة حوايك؟

قال لي: إزاي أنا اتعلمت كتير جدّا، واتغيرت كتير جدّا.

قلت له: بجد؟ يعني هتنزل مع اللي نازلين يوم ٣٠ يونيو؟



جاي هنا عشان أفضي دماغي شويتين، وقلت لك: العلم عند الله،  
المهم إنك تنزل وتعبر عن رأيك لو كان عندك رأي.

رد عليّ يهدوء شديد: لا، وأنزل ليه يا عمنا؟ مانا واللي زيي  
بتنخيط كل مرة، فأتنخيط وأنا في بيتي أحسن.. ما فيش أحسن إن  
الواحد يتنخيط بكرامته.

ثم رحل رجب نحو عمق القهوة وتركتني أتأمل كيف سار مجرى  
التاريخ على ما سار عليه وصار إليه فقط؛ لأن ملايين البشر اعتنقوا  
منذ الأزل مذهب رجب الفلسفي الذي يتلخص في عبارته الخالدة  
«ما فيش أحسن إن الواحد يتنخيط بكرامته».

يونيو ٢٠١٣

### اركب مع الثورة!

كتبت مرة على (تويتر) أقول: «بعض النشطاء يقيمون موقف  
الشعب من الثورة بناء على سائقي التاكسي الذين يركبون معهم،  
فيتضح أنهم مؤيدون للثورة بحماس شديد، وينسون أن لدى سائقي  
التاكسي موهبة في تقييف الآراء حسب رغبة الزبون تنافس موهبة  
فتحي سرور في ذلك»، وبعدها قرأت تعليقاً ألطف كتب قائله:  
«يغضني بشدة النشطاء الذين يكتبون أنهم مندهشون لأنهم ركبوا  
مع سائق تاكسي، ولم يقل أي رأي عن الثورة». بصراحة لست من  
المتحمسين لتقييم موقف الشارع من الثورة بناء على آراء سائقي  
التاكسي، ليس لأنني أتخذ موقفاً سلبياً منهم؛ بل لأنني لم أعد أركب  
التاكسي كثيراً منذ أصبحت لديّ عربة.

يعتقد البعض أن ظاهرة انشغال سائقي التاكسي بالهم السياسي  
ظاهرة محلية بحتة، والحقيقة أنها ظاهرة عالمية تؤرق كل ركاب  
التاكسي في شتى بلاد الدنيا. هناك عبارة شهيرة للكوميدي الأمريكي  
جورج بيرنز تقول: «من المؤسف أن كل من لديهم خطط رائعة  
لحكم البلاد مشغولون بالعمل كسائقي تاكسي أو حلاقين»، لكن  
الأمانة كلما تصادف أن ركبت مع سائق تاكسي بسبب ظروف تخص

سيارتي، وجدت لديه وجهة نظر تستحق التأمل، أو وجدته «مشغل الكاسيت» بصوت عالٍ يعطيني من تأمل أي وجهة نظر له.

نادرا ما أركب مع سائق تاكسي وأجده يتعرف على شخصي الكريم، وهو ما يشي بانشغال غالبية السائقين في لقمة العيش بعيدا عن صخب الفضائيات، وهو أمر كان يمكن أن يكفل لهم نقاء وجداناً وبراء سياسية تجعلهم مصدرا رائعا للحكمة، لكنهم للأسف يمتلكون حصيلة معرفية فتاكة تعتمد على سلاح الدمار الشامل المعروف باسم «ركب معايا واحد وقالي».

عقب خلع مبارك ركب مع سائق تاكسي قال لي إن أحد أعضاء المجلس العسكري ركب معه وقال له إن مبارك سيعود للحكم الشهر القادم بعد ما نلّم كل العيال اللي عاملة قلق في التحرير. لم أسخر من كلامه لأنه كان فظاً غليظ القلب فانفضضت من نقاشه وسألته فقط: هو إنت شغت شكله قبل كده في التلفزيون مع بتوع المجلس العسكري؟ فرد بجديّة: وهو أنا يا به فاضي للتلفزيون زيكو.. أنا راجل باشقى على لقمة عيشي. تجاهلت اللمزة البادية في كلامه وسألته: طيب، هل كان لابس بدلة جيش عليها رتبة لواء؟ رد بتلقائية: لا، الصراحة هو كان لابس ترينج. تجاهلت البلاهة الطافحة من إجابته وسألته: ممكن كان رايح نادي من بتوع الجيش وعشان كده نازل بالترينج.. يبقى أكيد قال لك بنفسه إنه عضو في المجلس العسكري، قال لي: بصراحة الكذب خيبة، بس هو شكله راجل ليه هيبة جاله تلفون وكان عمال يقول لي بيكلمه: أنا جاي من المجلس حالا.. قعدنا كثير في المجلس.. هاروح بكره اجتماع المجلس.. هو يا به في مجالس شغالة اليومين في البلد غير المجلس العسكري؟ مت من الضحك يومها، وظللت أروي

الواقعة كثيرا لأصدقائي متندرا، قبل أن تجعلني تطورات الأحداث أمكنها بوصفها خبرا جادا، بل وأسأل نفسي: يا ترى يا هلترى من كان عضو المجلس الذي ركب مع السواق إياه؟

بالأمس كان لديّ مشاوير متعددة منذ الصباح الباكر، ركب من أجلها أكثر من خمسة تاكسيات؛ ثلاثة منها كان بها زبائن يكرهون الثورة، وركاب الاثنين الباقين كانوا يكرهون الثورة ويكرهون أنفسهم أيضا، لو كنت من هواة الاستسهال الثوري لو صفت التاكسيات الخمسة اللي ركبته بأنها ليست سوى لجان إلكترونية متنقلة بين أحياء القاهرة أو غرف عمليات للثورة المضادة. لي صديق يعتقد جادا غير هازل أن رجال أعمال تابعين للحزب الوطني يمتلكون ثلاثة أرباع تاكسيات المدن الكبرى ويبيعوها الأرياف، وأنهم يقومون بدفع مرتبات آلاف الركاب الذين يركبون الأتوبيسات والميكروباصات بانتظام، ويتكبدون مبالغ طائلة في سبيل نشر دعاية مضادة للثورة، بينما الحقيقة أن ما يقوله أغلب راكبي المواصلات ورواد المقاهي وساكني الكنب من كلام مضاد للثورة وكاره لها ليس سوى حاصل جمع فشل سياسات محمد مرسي، وحكومة الخشب المسندة التي تدفع الثورة أخطاءها، زائد طيش وعصبية بعض الوجوه الثورية التي لا تعي أن دفاعك من قضية نبيلة لا يكفي لكي تكسبها، بل لا بد أن تكون هادئا وذكيا ومطمئنا للناس، وإذا أضفت إلى كل هذا خليطا إعلاميا يقوم بعضه بمداغة غريزة الخوف لدى الناس على طريقة أفلام الرعب، ولا ينشر كله الأمل والتفاؤل والمعرفة بين الناس لعلهم يفرقون بين ما تتحمل مسئولية الثورة وما يتحمل مسئولية الذين ركبوا عليها، عندما يتوفر كل ذلك، فأنت لا تحتاج بعده إلى أن تدفع مليما من أجل أن يقوم سائقو التاكسي وركاب الميكروباصات بتشويه الثورة.

بصرامة لو كان خَلْقُ رأي عام لا يناهض الثورة يتوقف على سائقي التاكسي وحدهم دون غيرهم، لكان الحل أن يلجأ الائتلاف شباب الثورة إلى رجل الأعمال ممدوح حمزة لكي يشتري خط تاكسيات يسميه (تاكسي الثورة)، ويتم تشغيله في شوارع المدن الكبرى بأسعار رمزية ويقوده قادة الائتلاف ويركب إلى جوارهم أعضاء الائتلاف لكي يجيبوا الناس في الثورة ويضخوا الدماء في شرايين الثورة المرهقة. إذا ظننت أن هذا الاقتراح هزار لا يليق في موضع الجد، فدعني أقل لك إنه إذا كان يحكمتنا على الدوام حاكم مصمم على أن يمارس مع نفسه ومع البلاد بأكملها لعبة الروليت الروسي بإصراره على العناد وعدم التغيير واستماته بلعبة الاستقطاب وعدم الحسم التي تكفل له انتشار حالة الفزع بحيث يبقى هو طوق النجاة الوحيد في نظر الملايين، وإذا كان لدينا إعلام يعتمد على «إنديكس» الموبايلات التي يمتلكها مائة معد برامجهم الذين يشكلون خريطة الرأي العام في مصر، وإذا كان لدينا تيارات إسلامية تظن أن الشريعة الإسلامية يمكن أن يتم تطبيقها بالصمت على الظلم، مع أن الشريعة في جوهرها انحياز ضد الظلم والنظاعة وعبادة الأسلاف وإسناد الأمر إلى غير أهله، وإذا كان لدينا نخبة مهترئة تظن أن الحريات العامة والخاصة يمكن أن يتم تحقيقها دون الحاجة إلى معارك فكرية وثقافية وتربوية طويلة الأجل، فبصرامة اقتراح تاكسي الثورة أجدع وأكثر فعالية وأسهل تنفيذاً، على الأقل الركوب مع الثورة أرحم من ركوب الثورة ذات نفسها.

٢٠١٣

## حكاية أثناء النوم

وهكذا أُنْهت السادة المشاهدون قرر بطل الفيلم بعد شهر من اللت العجن والكر والفر واللف والدوران، أن يبني للبطلة خازوقاً طويلاً «متد إلى «عنان» السماء، يضع لها عليه علماً صغيراً لا يتناسب مع «قول الخازوق، وفيما هي تشرئب ناظرة إلى العلم سائلة نفسها كيف قام البطل بتدبير تكلفة ذلك الخازوق المعدني القميء بينما يشكو لها كل دقيقتين من قلة المال وسوء الحال، فوجئت بالبطل يسدد إلى جنبها جسماً صلباً ظنته في البدء خنجراً، لكنه عابثها على سوء ظنها، وقال لها إن ذلك الجسم الصلب ليس سوى «وثيقة مبادئ للحياة المشتركة القادمة بينهما» يرغب أن توقع عليها بشكل سلمي ودون مباحكات، وهي رأت أن الكلام به نبرة تهديد فاستاءت بشدة، فقال لها إنه - معاذ الله - لا يهددها، بل يريد أن يحميها من أخطار محدقة بها، قالت البطلة بابتسامة مرهقة: «تحميني ثاني.. ده أنا لسه ما شفتش من الحمومة الأولى»، لم يتسم البطل وتعامل مع مداعبتها على أنها قلقة عابرة، أخذ يذكرها بكل ما تعرضت له من مضايقات طويلة الأشهر الماضية على يد شرير الفيلم عكرمة الذي يقصر جلاليته ويظيل ذقنه ولسانه، قائلاً: إن كل ما تعرضت له يهون إلى جوار ما يمكن أن تراه على أيدي

عكرمة ورفاقه الذين لا يمكن أن يردعهم عنها إلا هو، ذكرها بأن لغة الحوار لم ولن تكون مجدبة أبدا معهم، فالحوار - كما يفهمونه - أن ترد نفس آرائهم بقدر بسيط من التعديل، أما أن تقول رأيك كما تراه فأنت إذن تستحق الويل والثبور وعظائم الأمور.

حاولت البطلة أن تخفي ارتعادها مما قاله، ثم قالت: «طيب، وما هي مصلحتك التي ستجنيتها من وراء حمايتي؟ أرجوك لا تقل لي إنك تفعل ذلك من أجلي، وإنك تحبني.. فقد ثبت لي طيلة الأشهر الماضية أنك تفهم حبي بطريقة مختلفة تماما عن الطريقة التي أؤمنها». وأنه صامتا وعلى فمه ابتسامة مرتبكة فشجعت قليلا وقالت بصوت بدا أقرب إلى الغمغمة لكنه أخذ يتصاعد حتى كاد يصبح صراخا هادرا: «أنت في الواقع لا تحب إلا نفسك.. لو كنت تحبني لحققت لي كل ما أتمناه لعلك تُكفّر عن سيئات صمتك الطويل، وأنت تراني أتهلك وأهان دون أن تمد لي يد العون.. وعندما خاصمت صبري وانفجرت في وجوه ظلامي ظللت واقفا على الحياض طويلا قبل أن تنحاز إليّ.. ورغم أنني شككت في نواياك إلا أنني لم أكن أملك بدىلا آخر غيرك.. لم أكن بلهاء كما ظننتي.. أعلم أنك لا تشبهني ولن أشبهك.. عندي عليك ألف تحفظ وتحفظ.. لكنني أعلم ظروفي جيدا.. أعلم حظي العثر الذي سلمني لمجموعة من اللصوص والقتلة والطغاة كنت دائما تحميهم.. أعلم موقعي من العالم الذي يفرض عليّ أن أتحرك بحذر وحيلة.. أعلم أنني لا أملك إرادة قوية ولا استقلالا حقيقيا ولا موارد غنية.. كان أمني فيك كبيرا أن تنقذني وتحميني.. وكنت أراك دائما تتعثر وأنت تحاول حمايتي.. فأسال نفسي: هل يعجز عن حمايتي، أم أنه لا يرغب في

ذلك؟ هل يعقل أن يهدر فرصة عمره في اكتساب ثقتي التي قررت أن أسلمها له على طبق من ذهب؟ لماذا يفعل هذه الأفعال المريبة؟ لماذا صامتا وهو يرى عكرمة ورفاقه يعربدون بينما يقسو على أبنائي المحبين ويستهك حرياتهم؟ هل هذا فشل، أم تأمر؟ عذبتني الأسئلة طويلا، وعذبني أكثر أنني أعلم مرارة إجاباتها، وأني أدرك ندرة إحصائاتي وصعوبتها.. قررت أن أصمت وأصبر حتى يأتي من ينقذني من بين يديك بما يرضي الله.. فيحقق لي أحلامي ومطالبتي ويعاملني على أنني ملكة متوجة بدلا من أن يهينني ويستنزفني كما ظلمت تفعل ولا زلت.. لا تقل لي إذن إنك تريد أن تحميني لوجه الله.. اكشف أرواك وقل لي: أين ستكون مصلحتك في هذه الوثيقة؟»

ضحك البطل ضحكة عصبية وقال لها: «طيب وماله، لنلعب ذلك على المكشوف.. الحكاية وما فيها أنني بموجب هذه الوثيقة سأحميك من عكرمة ورفاقه.. سأجعلك تختارين بعلا لك كما تحبين.. سأحمي حياتك معك لكي تعيشي في سعادة وهناء»، صرخت هائلة: «في مقابل ماذا؟»، تجاهل ثورتها وقال: «لقد كتبت في هذه الوثيقة بندا يقول: إنني أنا نفسي ملك لك.. لكن ليس من حقل أن أأمريني بشيء لا أريد ولا البعل الذي ستختارينه.. ليس من حقل أن تعرفي ما سأحصل عليه من أموال أقطعها من ثرواتك لأحميك.. ليس من حقل أن تحاسبيني كيف أنفق تلك الأموال.. ليس لأنني طمعان فيها بل لأنه لن يعرف أحد مصلحتك أكثر مني.. ليس من حقل أن تأمريني بأي شيء، فقرار الدفاع عنك ضد جاراتك الطامعات فيك أنا وحدي الذي أتحمل تضحياته ولذلك من حقي وحدي أن أتحكم في تفاصيله»، قالت له والأرض تدور بها: «لكنك قلت منذ

قليل إنني ملك لك، فكيف تكون ملكا لي ولا يكون من حقي أن أمرك بشيء أو أن أحاسبك على ما تناله من ثرواتي؟ هل تكذب عليّ، أم تكذب على نفسك؟ لماذا لا تجعلني أعاملك كما تعامل كل البطلات أبطالها.. تحترمه وتهابه وتجل تضحياته، لكنها تراقبه وتحاسبه لكي لا يفسد؟ ألا ترى إلى جاراتي الطامعات كيف يعاملن أبطالهن بكل احترام، لكنهن لا يتركن له الحبل على الغارب ليفعل ما يريد وقت ما يريد؟ ألا أستحق أن تعاملني بنفس الطريقة؟».

هَبَّ واقفا من جوارها وهو ينتفض غضبا، رأت في عينيه نظرة مخيفة لم تعهدها من قبل ولم ترها في عينيه طيلة الأشهر الماضية، قال لها وهو يرفع إصبعه الذي طالما حذر بها: «أنت حرة.. إما أن تنصاعي لكل ما أطلبه وتقبلي بحرية منقوصة، وإما أفتح لك باب الفوضى على مصراعيه وسينحاز كل أبناءك المرهقين المكدودين إليّ لأنهم يعلمون أنني ملاذهم الأخير»، وجدت نفسها تكتسب قوة لم تعهدها من قبل جعلتها تنهض صارخة فيه: «أنت واهم.. ربما تفرض إرادتك الآن وربما غدا.. لكنك لن تفرضها إلى الأبد.. أنت تنسى أن أبنائي تحرروا ولن يعودوا ثانية عبيدا لمخاوفهم.. أنت الآن ترتكب خطأ جسيما في حق نفسك عندما تفتح أبواب الشكوك على مصراعيها وتحدي جيلا عرف الطريق.. أنت تنسى أننا لم نعد نعيش في العالم القديم الذي أدمنت الحياة فيه.. صدقتني إذا اغتررت بقوتك وبارهاق أبنائي فلن يدوم ذلك طويلا.. أنت لا تدرك أنهم تغيروا إلى الأبد ولن يقبلوا بحرية إلا ربع.. لن أخاف من تهديدك لي بعكسة ولا بغيره.. فأنا قادرة على أن أنتزع حريتي غير منقوصة؛ فقد دفعت ثمنها غاليا وليعني الله إن فرطت فيها ثانية».

وقف البطل مذهولا أمام روح التحدي التي فاجأته، اقتربت العلة منه وقالت له بهدوء: «لا تتصور أنني أجهل لماذا تفعل كل هذا.. لا تتصور أنني غافلة عما تفكر فيه.. أرجوك لا تقف في طريق عاداتي ولا تحدياني؛ لأن من حاولوا ذلك قبلك خاب سعيهم.. لا تق عقبة في طريق مستقبلتي الذي هو مستقبلك أيضا.. وتأكد أنني سأكون قادرة إذا حققت مطالبي على إقناع أغلب أبنائي أن يغضوا الطرف عن أشياء كثيرة فعلتها في الماضي.. لا تنس أنهم وثقوا بك من قبل فخذلتهم.. لا تخسرهم إلى الأبد فتضيعهم وتضيعني معهم.. لا تجعلنا نخسر فرصة العمر من بين أيدينا فقد لا تأتي ثانية»، التفتت البطلة أنفاسها ثم قررت أن تترك البطل يواجه نفسه قليلا، لكنها قبل أن تغادر المكان أشارت إلى الخازوق وقالت للبطل باستياء بالغ: «وأرجوك من فضلك ما تعملش الحاجات دي ثاني».

٢٠١١ يوليو

(نُشرت عقب احتفال المجلس العسكري بنصب خازوق معدني عملاق بالقرب من برج الجزيرة، قيل إنه يحيي ذكرى ثورة يناير، ولم يفهم أحد وقتها علاقة الخازوق العملاق بثورة يناير إلا بعد أن تم نزع الخازوق في صمت عقب تولي المشير عبد الفتاح السيسي لرئاسة البلاد).



إلى أربع وعشرين سنة لكي نكتشف جوهره ونتلو برنامجه الانتخابي  
من تلاوته وندرك أننا نحن الذين لم نعطه الفرصة لكي يحكمنا جيدا  
خلال السنوات الماضية. هل نحن فرحانون لأننا عملنا انتخابات  
«زورة وملعوبا في شرعيتها؟ طيب عملناها كثيرا قبل ذلك، فلم  
الفرحة الآن مجددا، أم نحن فرحون لأن رئيسنا حصل بالانتخاب  
على أكثر مما كان يحصله بالاستفتاء، لأن شعبنا رفض أن يأكل سمك  
الدكتور غزال، أو يلبس طربوش الصباحي، أو يستظل بشجرة عائلة  
الدكتور شلتوت؟

لماذا نحن فرحون هكذا يا قوم؟ دعونا من السائح الأجنبي وتعالوا  
نسأل أنفسنا. حتام نفل نعتقد أن الوطنية هي أن نفرد مئات الأمطار من  
القماش على الكباري ونلوح بعلم مصر للكاميرا متصنعين الخشوع  
أكثر؛ لكي نحصل على مكافأة أكبر من مدير الإنتاج؟ وأين هي الوطنية  
في التغني لمصر بكلمات مرصوفة بلهاء لا روح فيها ولا طعم لها  
ولا رجاء منها؟ ومتى ندرك أننا لو توقفتنا عن سرقة مصر وتخريبها  
بربع مقدار ما نغنيه لها لأصبحت بلادنا جنة الله في الأرض؟

لقد وصل بنا الحال إلى أن يغني المطرب هيثم شاكر في الأغنية  
التي تكرم نجل السيد كمال الشاذلي بإهدائها للتلفزيون المصري  
قائلا لمصر: «باحبك غضب عني.. أصلي تربيت في خيرك»، وهو  
اعتراف لو قاله أي شخص لوالدته مثلا لاثمته بأنه واطي؛ لأنه يحبها  
غصبا عنه مع أنه تربي في خيرها. ويبدو أن الشاعر محمد رفاعي  
كاتب الأغنية أدرك ذلك فحاول أن يصلح الأمور مع مصر ليقول  
لها بيقين مطلق: «يا بلدي يا حبة مني.. عمري ما بصيت لغيرك»،  
ليكون هذا البيت الشعري الأيل للسقوط إعلانا عن مدرسة جديدة

## البصيصة الوطنية!

في السنوات الأولى من حكم الرئيس مبارك ابتهلت السيدة  
ياسمين الخيام إلى الله بأن يكثر أفرحنا وأن «يدينا على قد نيتنا»،  
ودارت الأيام ومرت الأيام واعتزلت السيدة ياسمين الغناء لأن من  
الطبيعي أن يعتزل المطربون ويبقى الحكام، لكن الأيام أكدت لنا  
أنها كانت تغني في ساعة استجابة فقد أعطانا الله على قد نيتنا من  
وسّع وأكثّر من أفرحنا لدرجة أننا أصبحنا نخرج من عرس لندخل  
إلى عرس جديد؛ فصارت أيامنا كلها بفضل حكمنا السعيد أعراسا  
في أعراس.

تخيلوا معي لو أن سائحا أجنبيا جاء إلى بلادنا لأول مرة وفتح  
تلفزيوننا الوطني ليرى تلك الفرحة العارمة التي تملؤه إلى حوافيه،  
ولنفترض أنه أحب أن يشاركنا فرحتنا وسألنا عن المناسبة التي نحفل  
بها، ما الذي سنقول له؟ تعالوا نسأل أنفسنا فعلا: لماذا نحن فرحون  
هكذا؟ هل نقول له لأننا اكتشفنا أخيرا اختراعا اسمه الانتخابات  
المتعددة، فحضرناها لتأتي فيها يرئيسنا الذي كان يحكمنا ٢٤ عاما  
ليواصل حكمنا ست سنين أخرى، وبماذا سنجيبه عندما يقول لنا:  
وما الذي يدعو للفرحة هنا؟ هل نقول له إننا فرحون لأننا كنا نحتاج

في الوطنية هي «مدرسة مكافحة البصيص» التي ترفع شعار «إوعى تبص لغير بلدك» فقد اتضح للشاعر أن مشكلتنا كمصريين أننا نبصص لغير بلدنا كثيرا، مع أن بلدنا حلوة ومدورة وشكلها على الخريطة جميل جدًا، كما أشار المرحوم نجيب سرور.

إن الشاعر هنا يحذر الشاب المصري المحيط من تأخر سن الزواج بأن البصة لوطن آخر سهم مسموم والبصة الأولى له والثانية عليه، ويدعوه لأن يقطع على نفسه عهداً أمام مصر ألا يبص لغيرها أيًا كانت المغريات، ولو حدث وأخطأ فعليه أن يذهب إليها سريعا ليقول لها: «أنا أسف يا مصر، أصل امبارح كنت تعبان قوي فبصيت لكندا»، ولأن مصر قلبها طيب ومسامح مع الحرامية والظلمة والمزورين، فما بالك مع واحد من أبنائها المخلصين؛ لذلك حتما سترد عليه وهي تكظم غيظها قائلة: «مسامحك يا مواطن، بس حسك عينك تبص لحد غيري ثاني خصوصاً أستراليا؛ عشان أنا حاسة إنها حاطة عينها عليك بقى لها فترة».

٢٠٠٦

### من يوميات سائح حسن البنية.. سين الحظ!

السبت: يومنا الأول في مصر كان لا بأس به، زوجتي جودي أحببت «هنا» أكثر مني، الحرارة كانت خافقة، لكن النسيم عندما يأتي يكون الجو معقولا، الأسعار أرخص من بلاد كثيرة زرتها من قبل، الفندق كان يمكن أن يكون محتملا لولا انقطاع الكهرباء كل ساعتين تقريبا. صحيح أن هناك مولدا كهربائيا يعمل لكنه ليس مؤهلا لتسييل التكييف، عندما أبدت اعتراضي على الأمر نصحتني موظف الفندق - بلهجة لم أحسم إذا كانت تهكما أم شكوى - بتجريب الفنادق الغالية لأن الكهرباء لا تنقطع فيها أبدا. قرأت قبل أن أتني عن الزحام العتيق والتلوث الخائق وقذارة الشوارع وأفواج المتسولين التي تحاصر كأيما اتجهت؛ لذلك لا يمكن أن أقول إنني فوجئت بذلك، على العكس بدا لي المتسولون هنا أخف ظلا وأكثر كبرياء من زملاء مهتهم في الهند مثلا، لكن هناك شيئا وحيدا لم أفهمه: لماذا يحاول كثيرون هنا أن يتحسسوا جسد زوجتي جودي بدعوى الترحيب بها؟

علي، مرشدنا السياحي الشاب ارتبك عندما طلبت منه تفسيراً للظاهرة، ثم قال بنية حاول أن تكون مقنعة: إن الأمر له علاقة برغبة

المصريين الدائمة في التواصل الحميم، وإن حكاية التلامس ليست مسألة مستهجنة هنا، بل دليل أنك يمكن أن تجد رجلين ينهالان على بعضهما بالقبلات والأحضان في وسط الطريق دون أن يثير ذلك اهتمام أحد. أعترف أنني ارتبكت عندما رأيت المشهد لأول مرة، فقد ناقض ما كنت قد قرأته من تحذيرات للمثليين الراغبين في زيارة مصر، لكنني فهمت من كلام علي أن القبلات متاحة للرجال طالما لم تكن قسوة، والأحضان لا بأس بها على الإطلاق طالما لم تمتد الأيدي إلى المؤخرة، لكن لماذا إذن حاول أكثر من شخص تحسس مؤخرة جودي؟

ما يزعجني أن جودي لا تبدو منزعة من ذلك، عندما قلت لها إنني أشك في نوايا الكثيرين ممن يحتضنونها وهم يطلقون عبارات الترحيب بإنجليزيتهم الركيكة، لقد اعتبرت ذلك إطراء لها، مضيفة أنها تفضل دفء الشرق على بلادنا التي أصبحت تحتاج إلى رفع لافتة «أحضان مجانية» لكي تتواصل جسدياً مع الآخرين.

الأجد: يبدو لي بعد ثاني يوم من التجول في شوارع القاهرة أن المصريين يجنون رئيسهم مستر سيسي كثيراً، أينما اتجهت أرى صوراً له معلقة على كافة الحوائط؛ بعضها بملابسه العسكرية، وبعضها بملابسه المدنية وهو ينظر نحو اتجاه غير معلوم مبتسماً ابتسامة غامضة؛ رأيت صورة له لم أفهمها تم فيها تركيب رأسه على جسد طائر قال علي إنه نسر، وصورة أخرى له وهو يمتطي أسداً، علي قال إن المصريين يعيشون مستر سيسي؛ لأنه خلصهم من احتلال مجموعة إجرامية من المصريين تسمى «الإخوان» وقام بإبادتهم من الوجود، ولذلك منحه المصريون رتبة المارشال وعلقوا صورته في كل شبر،

علي غضب عندما قلت إنني أعرف أن رتبة المارشال تمنح لمن يحرزون الحروب العسكرية مع الأعداء، فكيف تم منحها إذن لمستر سيسي لمجرد أنه قضى على مجموعة من الخارجيين على القانون؟ غضبه ازداد عنفاً عندما استغرقت مصطلح إبادة الذي استخدمه علي وقالت له إنه يذكرني بما فعله هتلر مع اليهود، ونصحته إذا كان يجب مستر سيسي ألا يستخدم هذا التعبير علناً لأن شيوع هذا التعبير يمكن أن يورط مستر سيسي. استغرقت انفعال علي الشديد وقوله بعصبية إن أمثالي من الغربيين لا يفهمون حقيقة ما يجري في مصر التي تتعرض لمؤامرات دولية من الغرب الذي يكرها، حاولت تهدئته بأن أؤكد له أنني أرغب في الفهم فقط وأنتي لو لم أكن أحب مصر لما جئت لزيارتها برغم أن كل مواقع السياحة لا تنصح بذلك هذه الأيام.

جودي قاطعتني راجية ألا نتحدث في السياسة، وطلبت من علي أن يقوم برفع صوت أغنية من عجة راقصة الإيقاع تنبعث من كاسيت السيارة وبدأت في التمايل مع رفيقة رحلتنا ستيفاني التي تحلم بأن تتعلم الرقص الشرقي بعد تقاعدها. عندما نزل علي لشرب سيجارة بعيداً عنا، استدأر سائق السيارة التي كانت تحملنا في طريقها إلى الأهرامات العظيمة، وطلب منا ألا نصدق «علي» لأنه مختل يؤيد سفاحاً قام بقتل حوالي ألف مصري في يوم واحد وهو ما لم تفعله حتى إسرائيل مع الفلسطينيين، قبل أن يقوم بعصبية برفع أربع أصابع من يده اليمنى ويلوح بها في وجوهنا بشكل أفزع جودي التي مالت علي ورجتني ألا أفصح فمي بكلمة مع أحد؛ لأنني كلما فتحت لا أجلب سوى المشاكل.

استجبت لجودي واحتفظت بتساؤلاتي لنفسني، حتى عندما زادت

بعد قليل تساؤلا جديدا، حين قال عليّ معتذرا: إننا لن نتمكن من زيارة الأهرامات اليوم؛ لأن «الإخوان الأوساخ» قاموا بقطع الطريق المؤدي إليه لكي يقوموا بضرب السياحة. عليّ فهم بالطبع سبب ملامح الدهشة على وجهي، فأضاف بحماس: إن مستر سيسي قضى على قادة الإخوان لكن هناك الكثيرين منهم لا زالوا على قيد الحياة خارج السجون، وإن ما يمنع مستر سيسي من إبادتهم هو الغرب الذي لا يكف عن ترديد شعارات حقوق الإنسان، مع أنه يقتل الكثيرين عندما يكون ذلك في مصلحته، وإن الشيء الوحيد الذي يغضبه من مستر سيسي هو أنه لا يريد أن يستجيب لرغبة ملايين المصريين في إبادة الإخوان عن بكرة أبيهم. بدا لي أن «عليّ» لم يفهم شيئا مما سبق أن قلته له، فقررت أن أسكت، لكن جودي هي التي تكلمت ربما لكي تخمد رغبتي في الاعتراض قائلة بابتسامة عريضة بلهاء: «المهم أن يكون المصريون سعداء بما يفعله مستر سيسي».

الاثنين: يوم جديد آخر من الزحام والعرق والذباب والضوضاء والملل الرهيب والقبح المنبعث من كل اتجاه والاستماع إلى الهراء الذي لا يكف عن التدفق من فم عليّ، لا جديد يمكن أن يقال اليوم، ولا شيء يبهج سوى أن غدا هو الأخير لنا في هذه المدينة التعيسة.

الثلاثاء: لم يرافقتنا عليّ اليوم، قالوا لنا في شركة السياحة إن أخاه الأصغر قُتل بطلق ناري في مظاهرة وهو خارج من الجامعة، عندما سألت عمن قتله، قاطعتني جودي قائلة بارتباك: «هذا ليس مهماً، فقط أبلغوه تعازينا»، قررنا أن نقضي وقتا حزا بمفردنا إلى أن يأتي مرشد جديد ليصطحبنا مساء إلى جولة ختامية في القاهرة القديمة.

استذهب إلى شرم الشيخ، أنتظر ذلك بفارغ الصبر لكي يعوضني عن تجربتي البائسة، جودي البلهاء تسير فرحة بالنظرات التي يصوبها المارة إلى جسدها، بعد يوم واحد أدركت أن هذا ليس إطراء لجودي كما تتصور، شاهدت رجلا يمد يده ليتحسس مؤخرة امرأة تغطي كامل جسدها بالسواد، لم أخبر جودي بذلك طبعاً، ستهمني بأنني أمار منها لأنها تشعر بسعادة عارمة.

تجولنا في شوارع المدينة على غير هدى، نختار من الشوارع أقلها زحاماً وقبحاً، الجو اليوم كان جيداً مقارنة بالأيام الماضية، تمنيت أن يكون اليوم ختاماً جيداً لأيامنا في القاهرة، لكني لم أكن قد صادفت بعد تلك المصيبة التي يخبئها لنا القدر. كنا نسير في شارع يحاذي نهر النيل، ومع ذلك لم نتمكن من رؤية النيل إلا بصعوبة بالغة بسبب المباني ذات الأسوار العالية التي تحجب رؤيته، عندما سألت جودي عن الهدف من سيرنا في هذا الشارع إذن؟ طلبت أن أكف عن التذمر وأن أوصل المسير والاستمتاع بالهواء الجميل، قلت غاضباً إنني سأسير فقط حتى نصل إلى أقرب جسر لنصعد عليه ونشاهد نهر النيل من فوقه ثم نذهب للتغدى في أقرب مطعم متاح. هزت رأسها واصلت السير أمامي، بعد قليل وفي شارع غير مزدحم فاجأني مشهد لم أكن أتصور أنني سأراه يوماً ما في أي شارع.. في أي مدينة من مدن العالم، شاهدت هنا كثيراً أكواما من القمامة تملأ الشوارع، لكن هذا كان أمراً محتملاً مقارنة بهذا المشهد الذي تلعب بطولته مجموعة من الفضلات البشرية الجافة تترص متقاربة إلى جوار سور يحيط مبنى ما، كأنها تشكل متحفاً مفتوحاً للمخلفات البشرية.

وقفت أنظر مذهولاً إلى المشهد الكريه قبل أن أنادي جودي

التي نذت منها صرخة فور رؤية المنظر الذي أشرت إليه، وقالت لي  
 ساخطة إن عيني لا تلتقط سوى الأشياء القبيحة وإنها مرت إلى جواره  
 دون أن تلاحظ شيئاً، تجاهلتها وأخرجت كاميرتي لكي أصور المنظر،  
 وأنا أتصور الضحك الهستيري الذي يمكن أن يبعثه لدى أصدقائي  
 عندما يرونه، اتسعت ضحكتي عندما بدا لي من خلال العدسة أن  
 هناك مجهوداً في تشكيل بعض الفضلات لكي تكون ملتفة بشكل  
 مخروطي أحياناً، فجأة اسودت الدنيا بعد أن هوت يد ثقيلة على  
 مؤخرة رأسي، وخطف يد أخرى الكاميرا مني ورمتها لتسقط على  
 الأرض مهشمة، وجدت نفسي محاطاً بعدد يتزايد من الناس الذين  
 بدا جلياً أنهم غاضبون بشدة. لا أزعم أنني فهمت كل ما قالوه، لكن ما  
 تمكنت من تجميعه مما قيل بإنجليزيتهم، جعلني أفهم أنني وجودي  
 متهمان بتشويه سمعة مصر والسعي لالتقاط صور تسيء إليها وتمنع  
 السائحين من زيارتها، أكثر المتحدثين إجادة للإنجليزية اتهمنا بأننا  
 دون شك أعضاء في تنظيم دولي يريد تدمير مصر وأنه سيتم تسليمنا  
 إلى قوات الشرطة للتحقيق معنا للتعرف عمن يدفع لنا لتشويه سمعة  
 مصر. كل هذا فهمته، لكن ما لا أفهمه لا وقتها ولا بعد ذلك ولا أظن  
 أنني سأفهمه أبداً، هو لماذا قام كثير من الخائفين على وطنهم باعتصار  
 نديي جودي وإدخال أصابعهم في مؤخرتي؟

سبتمبر ٢٠١٤

### كان لي رئيس فيلسوف!

كان لي رئيس فيلسوف، بتوجيهات الشاطر شغوف، ولم يكن أحد  
 من شعبة الذي دعكته الظروف، يعرف أن رئيسه فيلسوف، إلا عندما  
 فُهب الرجل إلى باكستان، فأنحنت له الأبدان، وخفقت القلوب  
 بالحب والامتنان، وضائق الشوارع من الهيجان، وقلده فلاسفتها  
 الصولجان، ووضعوا على رأسه التاج وألبسوه روب الدباج،  
 وأشعروه بالفرحة والابتهاج، وشبوا له النعاج، وكادوا يمشون له  
 «افين على الزجاج»، فعرف أبناء شعبة الملهوف، أن رئيسهم رجل  
 فيلسوف، وعندها فهموا لماذا كان يتلجلج في الحروف، ويتخط  
 حسب الظروف، ويسلك كل طريق متلوف، ولم يروا منه في الإنجاز  
 «تنوف»، ولما رأوا كيف كرمه أهل الباكستان، وألبسوه الحرير  
 الطيلسان، أدركوا أنهم كانوا له ظالمين، ولفضله ناكرين، حين  
 ظنوا أنه سارح في دنيا الخيال، منفصل عن الواقع لا محال، بينما  
 الرجل من الفلاسفة، ونفسه عن الدنيا عازقة، فغادرهم الإحباط،  
 لأنهم محكومون بزميل لسقراط، ونزلوا إلى الشوارع يتشألطون؛  
 لأن رئيسهم من تلاميذ أفلاطون، ولم يعد أحد منهم في الشوارع  
 بطرطر، فريثسهم فيلسوف كسارتر.



ذهبت أنا مُقدّمة البرنامج الإذاعي الشهير «كان لي صديق فيلسوف» إلى رئيسنا التحرير، لأحمل له أسئلة مستمعي البرنامج العام، من الصفوة والعوام، بعد عودته إلى البلاد وتشريفه للعباد، فقلت له: قل لنا يا سيدي، كيف أصبحت رئيساً وفيلسوفاً بريفيكس، مع أن الرئاسة والفلسفة دونت ميكس؟ قال لي وقد أخذ نفساً عميقاً وأخرج زفيراً وشهيقاً: لأنني والحمد لله بنيت حياتي كلها على طلب السّر، ثم استدرك وقال: هل لا زلتم في هذا البرنامج تتحدثون بالسجع؟ قلت له: لا يا مولاي، منذ أن تم تخفيض الميزانية أصبحنا نفعل ذلك في مقدمة البرنامج فقط، قال لي: جميل لأن مستشاري الرئاسة منذ أن قلت خطبة أبلج ولجلج نصحوني بالآأ تحدث بالسجع كثيراً؛ لأن ذلك يجلب سخرية الزعران سليطي اللسان.. أكمل لي أسئلتك يا ابتني. قلت له: هل السّر إذن هو اسم مذهبك الفلسفي؟ فقال: لا أنا مذهبي حنبلي، لكنني تزوجت على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان وعلى الصداق المسمى بيننا. قلت له: لا أحدثك عن المذاهب الفقهية يا سيدي، بل أحدثك عن المذاهب الفلسفية، أيها أنت إليه أقرب؟ فقال: أنا أقرب إلى التكيف الآن وهذا يعتب ظهري كثيراً، فهلا تسمحن لي بأن أنادي أحداً لكي يقوم برفع ريش التكيف إلى الأعلى؟ قلت له: افعل ما بدا لك يا سيدي ولكن حدثني عن فلسفة السّر كما تراها، فقال: لست من الذين يميلون إلى المذاهب الفلسفية المعقدة، بل أنا من المؤمنين بأن الفلسفة الحقيقية تأتي من على ألسنة البسطاء وعامة الناس؛ ولذلك اكتسبت فلسفتي في السّر، من عبارة قرأتها على ظهري توك توك عندما كنت أحاول عبور شارع منيا القمم الرئيسي قادماً من الزقازيق ومتجهاً إلى جلسة في مجلس الشعب قبل

سوات، والتوك توك - إن كنت لا تعلمين - خنثى مشكل بين وسائل النقل، ليس بالسيارة مع أنه يسير، وليس بالطيارة مع أنه يكاد يطير، وليس بالموتوسيكل مع أنه يخرج هباباً من مدخنته؛ ولذلك فقد أحسن من أطلق عليه في إدارة المرور لقب المركبة البخارية.

قلت له وقد تملكني الإعجاب من وافر علمه وتدفق حديثه: أعلم ما هو التوك توك يا سيدي وقد امتطيت واحداً من أسفل كوبري التونسي إلى موقف ميكروباص مدينة نصر لكي آتي إلى سيادتكم، لكنني لا أريد أن يأخذنا الحديث فأنسى سؤالك عن تلك العبارة التي قرأتها على ظهر التوك توك والتي بنيت عليها فلسفتك، فقال لي وقد ارتسم على وجهه حبور بالغ: كانت العبارة تقول: «عُكْ ورُبُكْ عُكْ». قلت له وقد بدت حيرتي: تخيلت يا سيدي بما أن فلسفتك هي السّر، أنك ستذكر عبارة مثل «الستار موجود» أو «استر باللي بستر» أو حتى «صدّرها للي يقدرها» وغيرها مما يشتهر وضعه على أجساد التوكتوكات، لكنك اخترت عبارة أبعد عن هذا كله، فلماذا كان ذلك كذلك؟ أشرق وجهه بضحكة عريضة وقال: وكيف أكون فيلسوفاً إذن إذا لجأت إلى عبارة مباشرة لا تحتوي على مغزى عميق، إن عبارة مثل «الستار موجود» يا ابتني ليست عبارة فلسفية بل هي عبارة إيمانية لا تخص الفلاسفة بل علماء العقيدة، وعبارة «استر باللي بستر» هي دعاء يلزم الأمهات أكثر من الفلاسفة، أما عبارة «صدّرها للي يقدرها» فهي عبارة تهتم علماء المنطق أكثر لأنها جملة تعرض لنا منطقاً مهماً، إذ إنك لا بد أن تصدرها لمن يقدرها؛ لأنك لو صدرتها لمن لا يقدرها فانت تكدرها.

قلت وقد تملكني الدوار من قدرته على الارتحال بين الأفكار

كأنه سنباد ذو فحيح يمتطي بساط الريح: سامحني يا سيدي، فإنني أخشى أن أتوه في فيافي معرفتك الشاسعة وبساتين فكرك العامرة وأنسى سؤالك: كيف بنيت نظريتك في الستر على العك؟ فقال بأبوية حانية: لا ضير من الارتحال بين الأفكار فهذا شأن الفلاسفة، ألا تسمعين الناس يقولون لبعضهم: «بدل ما تتفلسف خش في الموضوع»؟ فكيف تريدني لي أن أدخل في الموضوع وأنا فيلسوف، حتى إن رأسي لا زال دافئا من أثر طاقة الفيلسوف التي منحها لي فلاسفة الباكستان، ولكن سأجيبك يا ابنتي رافة بحالك: يا ابنتاه، اعلمي أن العك طريق الستر، فأنت إذا لم تَعَكْ، فلماذا سيسترها الله معك؟ هل سيسترها معك إذا قمت مثلا بالالتزام بوعودك الانتخابية التي قطعتها على نفسك، عندها كان سيمشي كل شيء بشكل سليم وتختفي الحاجة للستر وطلبه، لكنك إن عككت فنسفت كل وعودك الانتخابية وأصدرت إعلانا دستوريا مليئا بالعك، وأنت واثق أن ربك سيفك ما عككته، فسيقيض الله لك من يقول للناس إن هناك مؤامرات مخفية استوجبت عكك، أو من يسمع لك ويطيع لأئك حافظ لكتاب الله، أو من يستعد لأن يزهق روحه وأرواح الآخرين من أجلك لأن ذلك سيكون طريقه إلى الجنة، وعندها ستدرك صدق إيمانك بحتمية الفَكْ إن حصل العَكْ.

قلت له: هذه مفاجأة تغفر لها الأقواء وتقطع لها الأمواه، إذن فقد كان ما فعلته سيادتكم منذ الإعلان الدستوري وما تلاه، أمرا مدروسا وراءه فلسفة ولم يكن مصادفة أو توريطة استدريجها لك بعض الحاقدين. اعتدل في جلسته قائلا: يا ابنتي لا تقظي أنني أصدر قرارا لا تكتنفه الفلسفة، وهذا للأسف ما رآه في أهل باكستان لأنه

لم أرد أن ينحرف مسار اللقاء عن مغزاه الفلسفي فسألته: قل لي من يعجبك من الفلاسفة يا سيدي؟ قال: يعجبني الصدق في القول والإخلاص في العمل وكل فيلسوف يصحى من النجمة لكي يلحق بأبواب الرزق التي تفتح ساعة البكور، فما الفلسفة إلا رزق؛ ولذا يا بخت كل فيلسوف يصحو في البكور ويؤدى فرض ربه ثم يخرج إلى شرفة منزله حاسر الرأس، ليملأ رأسه بأجمل الأفكار وأعذبها، ولعل هذا سر ما يستغربه الناس من قدرتي على الخطابة لساعات وأفكاري تنهم دون انقطاع. قلت: بارك الله فيك يا سيدي وتقبل منك صالح الأعمال، لكنني كنت أسأل: من هم الفلاسفة

الذين يعجبك عملهم؟ قال لي: كل فيلسوف عمله على نفسه وربنا سيحاسبه على قد نيته، قلت له: أعلم أن بحور الفلاسفة غريقة وأنني لن أحظى منك بإجابة مباشرة، لكنني أريد أن أنتزع منك إجابة تُفيد عشاق الفلاسفة.. لمن تقرأ الآن من الفلاسفة؟ قال لي: أقرأ صحيفة الحرية والعدالة وأواظب عليها بانتظام، ضحكك وقلت له: فهمتك يا سيدي أنت لا تريد أن توجه القارئ نحو اسم معين لكي لا يشغله عن غيره، لذلك سأسألك أنا كمجبة للفلسفة عن بعض من أحبهم من الفلاسفة لأستزيد من علمك، قاطعني قائلا: لا أحب أن أتكلم عن أحد في غيابه فذلك يدخل في بند الغيبة والنميمة، قلت له: لن أحدثك عن أشخاص الفلاسفة بل عن أفكارهم، هل تحب فكر سقراط؟ قال لي: ومن في هذا الكون لا يحب سقراط؟ هل شهدت الملاعب صخرة دفاعية صلبة مثله؟ نظرت إليه لأستجلي ملامح وجهه فقد شككت أنه غضب مني فقرر أن يرد على سؤالي بسخرية مريرة؛ لذا قلت مبتسمة: ألا يحزنك ألا يبقى من سقراط بين عموم الناس سوى ما قاله من كلام ساخر ينتقد فيه زوجته؟ قاطعني بملامح غاضبة وقال لي: قلت لك لا أحب أن أخوض في الأعراض، أنا لم أكن أتابع الرجل سوى في الملاعب وقد حزننت عليه عندما مات مؤخرا لكنني يمكن أن أفهم معاناته مع زوجته مع أنني لم أر شكلها ولو رأيته لغضضت بصري، لكنني أعلم أن نساء البرازيل معروفات بالجمال الفائق الذي يمكن أن يجعل الرجل يلف حول نفسه ويخاف ذباب وجهه. واصلت التفرس في ملامحه وأنا لا أدري هل هو جاد أم هازل، وقررت أن أنتقل إلى سؤال آخر فقلت: هل ترى أن أفلاطون كان أميناً في محاوراته مع أستاذه سقراط، أم أنه قام بنسب آراء إليه لم

لهاها وكانت هي آراء أفلاطون نفسه؟ نظر إليّ بجديّة شديدة وقال: الحقيقة أنني توقفت عن متابعة الكرة بعد جيل الثمانينيات، ولم أعد أعرف سوى أسماء متناثرة مثل روماريو وبييتو ورونالدو، لكن رحم الله سقراط لن يعرضه أحد، هل تعلمين أننا كنا نقوم بتشبيه حسن شحاتة به من حيث الشكل مع أنه كان يلعب في مركز مختلف؟

أدركت حينها أن سيادته كان يعاقبني لأنني أصررت على أسئلتي التي بدا من الأول أنه غير راضي عنها، فقلت: ردودك تجعلني أستنبط أنك ربما بحكم توجهك الإسلامي تفضل أن نتحدث عن الفلاسفة المسلمين كما اخترت أن تفعل في خطاب تسلم الدكتوراه؛ لذلك سألني: من هو أكثر من تحبه من الفلاسفة المسلمين؟ أشرق وجهه فأدركت أنني كنت محقة في ظني لكنه قال: أكثر من أحبه من الفلاسفة المسلمين أخي صبحي صالح، لديه قدرة مذهلة على الفلسفة تجعلني أغبطه وأتمنى لو امتلكت يوما لسانه، بارك الله لنا فيه. هنا أدركت أنني أخطأت عندما ركزت مجددا في الحديث عن الأشخاص، وهو أمر لا يحبه فيلسوف مثل سيادته حصل لتوه على الدكتوراه الفخرية ولعله يجب أكثر أن أسأله عن فلسفته هو، وليس عن فلسفة غيره، لكن المشكلة أنني كنت قد أنفقت وقتا طويلا في محاولتي البلهاء تلك، ولم يتبَقَ وقت كثير من الذي تم تخصيصه لي لإجراء الحوار.

قلت: أعرف سيدي أنني قد أثقلت عليك، وأخذت من وقتك الموزع بين بحور الفلسفة وشئون الحكم، لذلك لم أعد أطمح إلا في أسئلة قصيرة أتعرف بها بشكل مختصر على رؤيتكم الفلسفية للمكون والحياة، قال: ولو أن الاختصار ليس من فلسفتي لكن ضيق

الوقت سيجبرني على ذلك، قلت: أما وقد عرفنا فلسفتك في الأمور السياسية، فما هي فلسفتك في الحياة الشخصية؟ قال: أنا أؤمن بمقولة جامعة مانعة لا أكف عن ترديدها هي مقولة: «خلي جلدك تخين»، قلت: هذه مقولة أقرب إلى فلسفة القوة لدى الفيلسوف نيتشه، قال بعد ارتباك قصير: نيتشه.. لعله نتشها مني.. هل هو أمريكي؟.. ربما كان زميلا لي في الجامعة واقتبسها بعد أن سمعها مني. لم أتبين إذا كان جادا أم هازلا، لكنني شعرت أنني أخطأت عندما أعدت طرح اسم فيلسوف غربي من جديد فعدت لأسأله سريعا: وما هي فلسفتك الاقتصادية؟ فقال وضحة عريضة تملأ وجهه: نفس فلسفتي في السياسة والحمد لله «عُك وربك يفك». انتقلت إلى سؤال ثالث وأنا أحمد الله على سرعته في إجابة السؤال السابق: يا سيدي كل فيلسوف له مفهوم للزمان، فهل يمكن أن نستنبط مفهومك الفلسفي للزمان من عبارتك الشهيرة التي حيرت الفلاسفة والتي تقول فيها عقب أحداث بور سعيد الدامية: «إذا اضطررت فسأفعل، وما أنا أفعل» بحيث إنك جمعت زمنين متعارضين في لحظة من الزمن؟ نظري إلي بحيرة وقال لي: «فين السؤال؟»، شعرت بالحرج وقلت له: «عندك حق يا افندم، آسفة.. سؤالي: إيه مفهوم سيادتك للزمان؟»، رد قائلا: «وليه نتكلم عن زمان؟ ما تخيلينا في دلو قتي وتحدياته». جعلتني ملامح الجدية المرتسمة على وجهه أمتنع عن مناقشته أو الظن أنه يهزل، فقررت أن أنتقل إلى السؤال التالي: وهل لدى سيادتك فلسفة صحيحة؟ رد بحماس: فلسفتي تلتخص في كلمة واحدة «القبيلة»، كما أنني أنتهز الفرصة لأؤكد على ما سبق أن أشار إليه أخونا رئيس الوزراء من ضرورة الاهتمام بالنظافة الشخصية للصدر عند السيدات. تأكدت

الآن أنه يسخر مني لينبهني إلى أن وقتي معه قد طال فقلت: سؤالي الأخير يا سيدي، تعلمون أن أبسط تعريفات الفلسفة هي أنها لفظة «بانية مركبة من كلمتين: «فيلو» أي محبة و«صوفيا» أي الحكمة، أي أن الفلسفة تعني محبة الحكمة، قاطعني وقد قطب وجهه قائلا: وماذا نتقيد بالتعريف الغربي، أنا شخصيا أفضل اسم صافية على اسم صوفيا، هناك أيضا اسم صفاء بكل ما فيه من قيم ودلالات، ثم لماذا نجب صوفيا أو صفاء بالذات، لماذا لا يحب كلنا بعضنا، نحن بعضنا الكثير من الحب، لو كان اليونانيون قد أحبوا بعضهم بدلا من صوفيا لما كانت اليونان قد تعرضت للإفلاس، دعيني هنا أكرر إن الذين يتحدثون عن الإفلاس هم المفلسون، هم المفلسون، هم المفلسون، وصدقني والله لو أحببنا بعضا لغار منا اليونانيون ولما كانت هذه آخر دكتوراه فخرية يمنحها لنا الباكستانيون. هنا وجدت نفسي أقاطعه قائلة لكي الحق بآخر فرصة للسؤال قبل فساد الوقت: «طيب إذن، ما هو تعريفكم للفلسفة؟ قال بعد لحظات مهيبة من الصمت: الفلسفة هي المبدأ الذي تسير عليه في حياتك من غير ما تتفلسف، فنحن يا بتي لم نضيعنا إلا الفلسفة، قومي إلى حياتك برحمتك الله.

خرجت من مقابلة سيادته وأنا أقول لنفسي: إما أن هذا الرجل لا علاقة له بالفلسفة من قريب أو من بعيد، وأنه أكثر عمقا وتركيبا من كل المذاهب الفلسفية التي توصل إليها العالم حتى الآن، وربما لذلك رأى فيه الباكستانيون شيئا لم نره فيه، وربما لن نراه فيه أبدا.



## خطاب ثم يلقه أوباما!

فجأة تسرب مشروع الخطاب الذي يفترض أن يلقه الرئيس الأمريكي باراك أوباما خلال زيارته القادمة لمصر. نقول فجأة مع أن الذين يعرفون الأمريكيان جيدا لا يؤمنون بوجود شيء يحدث لديهم فجأة، ويرون أن التسريب كان مقصودا للرد على حملة التهليل التي قام بها الإعلام الرسمي المصري عقب إعلان البيت الأبيض أن أوباما سيوجه خطابه إلى العالم الإسلامي من مصر، وتصوير ذلك على أنه انتصار شخصي للرئيس مبارك؛ لذلك تم التسريب لوضع الأمور في نصابها، وهو ما تؤكد عدة فقرات من خطاب أوباما المنتظر الذي أنفرد بنشر فقرات منه لأول مرة معتذرا عن مستوى الترجمة.

«السيدات والسادة، نعم، كان من الطبيعي أن أتوجه بخطابي إلى العالم الإسلامي من مصر؛ لأن أي شخص حتى لو كان على دراية بسيطة بتاريخ العالم الإسلامي وواقعه ومستقبله يعلم أن مصر هي بوابة التغيير في الشرق، وعندما تتقدم مصر وتقوى سيصبح العالم الإسلامي في أحسن حال وسيكون قوة فاعلة نحتاجها لتغيير الكون الذي صار مهتدا بالفناء. أعلم أن كلامي قد يكون خارجا على قواعد اللياقة السياسية، لكنني لا بد أن أعبر بعد دراستي لأحوال مصر عن

في الشديد لأن يكون البلد الذي علم الدنيا كلها قابعا الآن في ظلمات الجهل والتشدد، أنا حزين لأن مصر التي تعلم العالم منها الطب والتمريض تعيش معاناة صحية غير مسبقة، أنا حزين لأن مصر بلد النيل يعاني بعض سكانها من العطش وأغلب سكانها من المياه الملوثة، أنا حزين لأن مصر التي كانت أسبق دول المنطقة إلى النهضة زالت محرومة من حقها في ديمقراطية حقيقية سلمية عبر صورية يحكم فيها رئيس منتخب لمدة أقصاها فترتان رئاسيتان، أشعر بالخجل لأنني أזור بلدابه هذا القدر المبهر من الكفاءات التي تستفيد منها دول العالم وعلى رأسها الولايات المتحدة، ومع ذلك يحكمه رجل واحد منذ أكثر من ٢٨ عاما، وهو أمر لم يعد مقبولا في العالم كله أيًا كانت فضائل هذا الرجل. لقد أحزنني أن يتم تسويق هذا الوضع المؤسف بالرغبة في الاستقرار والخوف من المجهول، وهو ما كان يسوقه أعداء التغيير لدينا، الذين صوروا للمواطن الأمريكي أن تغييره لقيادته يمكن أن يوصل الإرهابيين إلى السيطرة على أمريكا، وللأسف صدقهم المواطن البسيط ودفعنا بلادي ثمن ذلك غاليا، ثم قرر المواطن أن يلبي نداء التغيير ويستجيب لشعار الانتخابي «Yes we can» والذي نهتني مستشارتي للشئون الإسلامية أنه مطابق نص آية قرآنية مقدسة تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، وهي آية يبدو أن مواطني العالم الإسلامي قرروا نسيانها إلى الأبد.

السيدات والسادة: لقد جئت اليوم لأخاطب مواطني العالم الإسلامي من هذا البلد العظيم إلى ضرورة أن يدركوا أن التغيير لن يهبط عليهم من السماء، وأنهم هم الذين سيصنعون قدرهم بأيديهم،



لقد سُئلت مرة من قبل صحفي كيني عما إذا كنت سأساعد البلد الذي تنتمي إليه جذوري، وقلت له بصدق: نعم نريد أن نساعد كينيا، ولكن على كينيا أن تساعد نفسها بأن تتخلص من الرشوة والفساد... واليوم أقولها لكم في هذا البلد وفي كل بلد إسلامي: نريد أن نساعدكم ولكن عليكم أن تساعدوا أنفسكم أولاً، عليكم أن تكونوا مستعدين لدفع ثمن التغيير وتذكروا أنه أسهل بكثير من ثمن الركود والجمود والتورث والفساد...».

فجأة انقطع بث الخطاب الوهمي في مخيلتي، وصحوت على قلم ثقيل يهوي فوق خدي، لحسن الحظ لم يكن قلماً بوليسياً لإفاقتي أثناء التحقيق، بل منحتني إياه ابنتي الصغرى بعد أن لاحظت طول شرودي وأنا أفتح فمي بضحكة بلهاء فقررت أن تستجوبني بطريقتها: «بابا إضحك كده ليه؟»، طمأنيتها أنني لم أجن بعد، وعدت لأسرح فيما كان سيحدث لو قرر أوباما أن يكون خطابه فعلاً كما تخيلت. كيف كان نظام الرئيس مبارك سيستقبل زيارته وخطابه؟ وهل كنا سنفضل أن نصبح من دول محور الشر على أن نتفاعل مع خطاب كهذا؟ ولماذا نحن أساساً محتاجون إلى أن يأتينا خطاب التغيير من الخارج، وإلى متى سيظل مكتوباً علينا الغلب الذي نعيشه لأننا لا نريد أن نتغير؛ ولأننا نفضل أن نعتقد شعار «No, we can't»؟ صحوت من خوارطي هذه المرة على كف ابنتي الرقيق وهي تطبط بحنان على مكان الصفعة، وتسالني مخضوضعة: «بابا إنت إعيط كده ليه؟».

مايو ٢٠٠٩

### العسكري الراقص!

إذن لم ينفد بعد ما لدينا من مخزون الانحطاط؛ لذلك إبقوا معنا سجدوا ما يدهشكم بقدرتنا الدائمة على ارتجال الانحطاط. هل نستم أن الجمال والبغال والحمير والعصي الكهربائية والخشبية كانت آخرنا؟ لا يأسادة، الآن إليكم العسكري الراقص.

أي واقعية سحرية يدعيها أدباء أمريكا اللاتينية؟ وإذا كانت الواقعية السحرية تعني أن تطير سيدة بصحية ملاياتها إلى السماء أو أن تجري الدماء كالأنهار في شوارع قرية، فبماذا نسمي ما حدث قبل أيام في قلب القاهرة: عسكري أمن مركزي يقف في خضمّ مظاهرة حامية الوطيس حيث يتبادل زملأوه قذف الطوب مع المتظاهرين إلى حين يأتي إمداد قنابل الغاز من المخزن، هو دوناً عنهم يسك بسيف حديدي لا يعلم أحد من صرفه له ومن أفعه أنه يصلح لفض مظاهرة، ولا ما هي اللحظة النفسية التي جعلته يلوح بسيفه في الهواء كأنه يحارب جيشاً متخيلاً من الإسكتلنديين الراغبين في الانفصال، قبل أن يتطور الأمر فيضع السيف فجأة في موضع محاشمه؛ ربما لكي يثبت أن الطعام المطهو بزيت الكافور لم يؤثر عليها، مشيراً بسيفه إلى المتظاهرين إشارات بذية تكشف عن خبرة عتيقة في الجماع

استمدتها بالتأكيد من عشرات الأفلام الفاضحة التي شاهدها على القهوة المجاورة لمحطة بلدهم قبل أن تندده نداهة القاهرة وتلقي به في معسكر أمن مركزي لا يعلم إلا الله ماذا قيل له فيه عن المتظاهرين الذين لا ينبغي فقط أن تضربهم بالعصي بل علينا أن نضاجعهم بسيوف حديدية حفاظا على استقرار الوطن؟

منذ أن شاهد أصدقائي كليب العسكري الراقص والأسئلة تنهمر دون إجابات؛ بعضهم أخذوا يسألون عن طبيعة الأفكار التي تلقاها ذلك العسكري من الضابط الذي يرأسه، خصوصاً أننا لم نشاهد ضابطا يقتحم الصفوف لكي يطمشه قلمين ويسأله: «تهيب إيه يا حمار؟»، هل كان رئيسه ضابطاً من نوعية الضباط الذين يكتبون على حساباتهم في الفيس بوك أنهم سيفتقون الثوار، ويعدون صديقاتهم المحبطات بأنهم سيطلقون الرصاص على المتظاهرين في المرة القادمة «عشان يتربوا»، أم أنه كان ضابطاً مثقفاً جلس مع عساكره في السكنة وشرح لهم خطة «فريضم هاوص» لنشر الانحلال في مصر المحروسة بعد أن تم خلع مبارك حارس العفة، فقرر العسكري أن يقول للمتظاهرين إنه فقس خططهم الدينية وأنه سيفعل بهم ما يزمعون فعله من فحشاء بالحرائر ذوات الخدور؟

صديق مخرج اتصلت بي زوجته تطلب مني أن ألحقها لأن زوجها سيموت من فرط تأثره بنوبة من الضحك بدأت حين شاهد الكليب ثم قرأ أن وزير الداخلية أصدر قراراً بالتحقيق في الواقعة، فتخيل على الفور العسكري وهو يقوم بإعادة تمثيل الجريمة أمام جهات التحقيق، ومن ساعتهما وهو يضحك دون توقف حتى خشيت زوجته على توقف قلبه.

على العكس تماماً، ثمة صديق شديد التهذيب استاء بشدة مما «قال بحزن حقيقي: «إيه الكلام الفارغ ده؟ إزاي الداخلية تسمح بحركات زي دي؟ إحنا متعودين نشوف الحاجات دي متداعة في إشارات الكورة بس». صديق آخر مهتم بالتكنولوجيا وتصنيف الأفلام في نفس الوقت انشغل بالسؤال عن أي كلمات مفتاحية استخدمها مسئولو موقع اليوتيوب لتصنيف ذلك الكليب، ووصل بعد تفكير إلى أنهم سيستخدمون كلمات «قمع - أمن - مصر بعد الثورة - هלוسة - سيف ذكري». أما صديقي الذي يعاني من تسرب «كرر للغاز في شقته، فقد أقسم أن ما قام به العسكري الراقص ناتج لا محالة عن تسلله كل ليلة إلى مخزن قتال الغاز في كئنة الأمن المركزي وقيامه بفتح قنبلتين وشمهما فقط؛ لكي ينسى امتهان كرامته وأدميته.

صديقي حمدي عبد الرحيم ذكرني بيوم الخامس والعشرين من يناير عندما كنا نتظاهر أمام دار الحكمة ونحن لا نعلم أننا نشهد وقتها ميلاد ثورة شعبية عظيمة، كان عساكر الأمن المركزي المرهقين بصطفون أمامنا غير فاهمين لماذا يهتف البعض دون حماس: «يحييا الشرطة ويا الشعب»، ولماذا تفجر الحماس فجأة مع هتاف: «يسقط يسقط حسني مبارك»، خلف الجنود تقف نضارات شمسية سوداء طلع لها ضباط، وفي ذات الوقت الذي كانت تسمع فيه بوضوح أصوات تكريعات الضباط الناجمة عن وجبة غداء جامدة، قال عسكري أمن مركزي لنا: «يا عم ارحمونا وروحوا... إحنا واقفين من الصبح وما فطرناش»، بعد قليل سقط عسكري آخر مغشياً عليه بعد أن أصيب بهبوط حاد. هب المتظاهرون لنجدته في حين نبج كلب

من كلاب مبارك بعدها على موقع صحيفته قائلا: إن المتظاهرين غلاظ الأكياد ضربوا عسكري أمن مركزي على رأسه فسقط شهيدا، لم نعرف حتى الآن إذا كان العسكري قد أفطر أم لا، لكن ما نعرفه أن نفس العساكر والضباط الذين كان بعضنا يهتفون لهم بأن يحيا ويا الشعب، عزفوا وصلات ضرب وحشية على أجساد المتظاهرين الذين كانوا يحاولون العبور إلى التحرير، يوما عندما شاهدت آثار الضرب الوحشية على وجه صديقي المخرج عمرو سلامة الذي نجا من الموت بفضل العساكر الذين تعاطفوا معه بعد أن هروه ضربا وقاموا بتهديه في غفلة عن عين الضابط الذي طلب منهم أن يخلصوا عليه، قلت لحمدي: «واضح إن عمرو وقع مع العساكر اللي فطرت النهارده».

يا الله، كيف وصلنا في ربيع قرن فحسب من (أحمد سبيع الليل رضوان الفولي) إلى العسكري المضاجع؟ ومن المستفيد من تهشيم تلك الصورة الذهنية الساحرة التي صنعها لنا وحيد حامد وعاطف الطيب وأحمد زكي والتي جعلتنا سنين طويلة لا نرى في وجوه عساكر الأمن المركزي المصطفين لإرهابنا وضربنا سوى مشاريع لمتמרدين أبرياء، فور أن يعرفوا الحقيقة سيفتحون النار على أعداء الوطن الحقيقيين؟ ويا ترى لو كان أحمد سبيع الليل مشاركا في قمع المتظاهرين هذه الأيام، فهل كان سيخرج الناي من جيبه ويضعه في موضع عفته ليفعل ما فعله العسكري الراقص؟ ثم بالذمة ألن تتحول المظاهرات القادمة إلى مسخرة فائقة الأبعاد بمجرد أن ننظر في وجوه ضباط وعساكر الأمن المركزي، ونسأل أنفسنا من منهم سيخرج الآن سيفه لكي يبدأ في الرقص البذيء؟

وحتى تجد مصر حلا في عساكر الأمن المركزي أو حلا لهم، لا يفي إلا أن نهتف له، حتى نراه في الواقع وليس في السينما وحدها: «أش المجند أحمد سبيع الليل رضوان الفولي».

«صل... إزاي ينقلوا البياعين حتة تانية يزوحوا يبلطجوا فيها ويبيعوا  
«خدرات ويقرفوا الناس؟ كان لازم يحرقوهم كلهم ويخلصوا البلد  
«من وساختهم»، فشلت في التزام الطناش، وسألته عما سيشر به لو  
وجد أحدا يطلب الحرق لأمثاله من سائقي التاكسي الأبيض عندما  
«اموا بمظاهراتهم قبل أشهر، رد بتلقائية دون أن يرى مشكلة تخصه  
«بما قلته: «بس إحنا مظاهراتنا جابت نتيجة والجيش كتر خير هيدفع  
لنا الديون.. مش هيسيوونا كده يعني، أكيد هيشوفوا لنا حل عشان لو  
إحنا عطلنا، البلد كلها تعطل».

سألته عما سيفعله إذا افترضنا أنه - يعني لا سمح الله والعياذ  
بالله وبعد الشر - لم يتم دفع الديون وتم طلب تحصيلها بالقوة أو  
الاستيلاء على التاكسي لسدادها، فقال كأنه يردد بديهية: «هاولع لهم  
في التاكسي.. آمال هاأكل عيالي منين؟»، وعندما قلت له: «وتهون  
عليك مصر؟ ده أي حد بيعحب مصر لو شافك بتعمل كده هيرميك  
جوه التاكسي وهو بيولع عشان ما تشوهش سمعتها»، نظر إليّ بعدائية  
وساد صمت لم تقطعه سوى جملة «على يميناك يا أسطى».

(٢)

يومها شبطت فيّ ابنتي الصغرى عندما قلت إنني ذاهب لدفع فاتورة  
الموبايل في فرع قريب لمزنا لبشارع القصر العيني، حاولت تسخيف  
فكرة نزولها معي لأنني أعرف أن علاقتها بالشوارع المحيطة بنا مقتصرة  
على الفرجة عليها من الشبايك الثابتة والمتحركة، لكن جملة «عايزة  
أمشي معاك في الشارع شوية» هزمتني فاستسلمت لها.

## عن أهمية الكلوت كعد أدنى للاستثمار

(٣ مشاهد من فيلم مصري طويل - خارجي - ليل بهيم)

(١)

دخلنا إلى ميدان التحرير فجاءني صوت سائق التاكسي «شايف  
يا أستاذ الحلاوة والنضافة والشياكة»، وجدته ينظر لي في المראה  
مبتسما فهزرت رأسي دون اكتراش، ليضيف قائلا: «معلش أصل  
الفوضى وحشة يا أستاذ»، ومع أنني كنت قد عزمت منذ فتح فمه  
فور كوبي على الطناش لكنني إكراما للمكان رددت من طرف لساني:  
«طبعاً مش عايزة كلام.. الفوضى أوسخ حاجة وآخرتها وحشة على  
الكل.. على اللي عملوها وعلى اللي استغلوها كمان»، لم يكثر  
بما قلته واصل كلامه: «ولأ شوارع وسط البلد لو تشوفها دلوقتي..  
يا سلام.. عاملة زي باريس في عز مجدها»، كنت على وشك أن  
أقول له: «حمد لله على سلامتك.. جيت إمتى من باريس؟»، لكنني  
قررت الطناش حتى يأتي الفرج بفراقه.

واصل قائلا: «هو بس في حاجة واحدة مش عاجباني في اللي

بعد أن أخذت ابنتي زخرفها وازينت، انطلقت رحلتنا القصيرة التي كان لا بد أن نبدأها بالسير في شارع مجاور لضريح الزعيم سعد زغلول المحاط بأكوام الزباله من كل جانب باستثناء جانبه المواجه لوزارة الإنتاج الحربي! ومع أول ثلاثة أكوام زباله - صغيرة للأمانة - حدث ما كنت أخشاه، حيث بدأت ماكينة الأسئلة الطفولية التي لم تعد المرأة المرهقة تتحملها: «بابا ليه الناس بترمي الزباله كده في الشارع؟»، بعد صمت مطبق من جانبي داهمني السؤال الثاني: «هم مش عارفين إن ده بييجيب أمراض؟»، ولكي لا يبدو صمتي سلبية لا تليق بأب يفترض أنه يملك «زتونة» الحكمة، هززت رأسي باستنكار وقد رسمت علامات الاشمئاط على وجهي، لكن ذلك لم يمنع مجيء السؤال الثالث: «طب مش المفروض السيسي يشيل الزباله دي؟»، كررت هز رأسي في الاتجاه العكسي هذه المرة، لكن ذلك لم يكن مقنعا لها، فسألتني: «بابا إنت مش بترد عليّ ليه؟»، وعندها كان لا بد أن أجيب بهراء مقنع لا يجر المزيد من الأسئلة دون أن أقول كلاما غاضبا يلعن كل شيء، فتردده في حديث مع أحد ما من صديقاتها فينتهي الأمر بتسليمها لشرطة الأطفال العسكرية.

تقمصت شخصية مواطن شريف يخاف من مصير سوريا والعراق وقلت كلاما عن ظروف البلد الصعبة وعن لم الزباله الذي يحتاج إلى فلوس كثيرة ستأتي في القريب العاجل وحتى يحين ذلك فما هي الزباله تحل لنا مشكلة تأكل الكلاب والقطط، ولم أقل وبعض الناس حفاظا على مشاعرنا البريئة، وعندما نظرت إليها لأرى وقع كلامي

أبها، وجدتها تسد مناخيرا بيديها، فلم أعرف هل كان ذلك بسبب الهمّة كلامي، أم بسبب الهبو المنبعث من كوم زباله عملاق كنا نسير إلى جواره.

عندما مررنا إلى جوار مبنى وزير التربية والتعليم نظرت ابنتي إلى المبنى الضخم المظلم ليلا، وقالت: «إيه المكان ده يا بابا؟ ده «أمل زي القصر المسحور»، ضحكت وقلت: «ما هو زمان كان «سر فعلا، بس دلوقتي بقى مبنى وزارة التربية والتعليم.. الوزارة «اعتكروا يعني»، وقفت للحظة تتأمل المبنى قبل أن تقول لي بجديّة: «ده شكله مسكون»، وأنا لم أكن في مود الهزار، فقلت لها متقمصا «ور عبد الحفيظ التطاوي: «طبعا مسكون بشبح التخلف»، قالت «بشمسة: «لا يا بابا، ده مسكون بشبح وزير اقتتل من أربع سنين ولو ركزت شوية حتلاقيه واقف على السور دلوقتي»، ضحكّت فسألتني فخوراً: «حلوة مش كده»، كنت على وشك أن احتضنها بقوة لولا أنها أشارت إلى كلب مربب الطلعة يقترب نحونا وقالت: «مد شوية يا بابا، الكلب ده شكله مسعور».

على ناصية الشارع التالي وإلى جوار كوم زباله جديد، سألتني بمناسبة أنني كنت على وشك السفر إلى نيويورك: «بابا هي نيويورك فيها زباله كده؟»، قلت بحماس أب يهدف إلى ألا تشعر ابنته بعقدة نقص أمام العالم: «طبعا فيها زباله كثير زي أي مدينة كبيرة»، وعندها تذكرت مناقشة بيني وبين كاتبة أمريكية صديقة قالت إنها لا تفهم سر إعجاب أمثالي بنيويورك التي تتحول كل مساء إلى مدينة مزينة



أخذ رجل الأعمال العائد من الخليج بعد طول غياب يحكي لي كيف أخذت أحلامه العريضة في الاستثمار في أرض الوطن تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى تلاشت تماماً.

كانت هذه المرة الثالثة مرة يقرر فيها العودة إلى مصر خلال أربعة أعوام، عاد أولاً بعد الثورة لينهي غياب خمس سنوات عن مصر التي «هججه» منها فساد حكم مبارك، بعد أشهر وجد أن الحال لم يتغير، فسافر وعاد بعد نجاح مرسي ليكتشف بعد شهرين من عودته أن هناك من ينصحه بأنه إذا رغب في تسليك مصالحه سريعاً بأن عليه أن يشارك فلانا وعلاتنا من رجال أعمال الإخوان. سافر من جديد وعاد بعد رحيل مرسي فرحاً بالخلاص من الحكم الإخواني ومصدقاً أن مصر أخيراً تغيرت، وعندما سأله أن يوجز لي التغير الذي حدث في مصر منذ عاد، فقال لي بهلوء: إن أهم شيء تغير هو عرض الخازوق الذي كان يجلس عليه من قبل، أصبح أعرض وأعمق.

كان الهدف من جلستنا أن أتعاون معه في مشروع فني يفكر في إنتاجه، لكنني بعد حوالي ساعتين من حكاياته المفزعة عن كواليس الفساد في عالم البيزنس أصبحت أراه هو نفسه المشروع الفني الذي لا بد من كتابته، وبرغم أنه حلفني منذ البداية أن كل ما يقوله ليس للنشر، فإن غواية كتابة ما يحكيه أصبحت أقوى من غواية تنفيذ مشروعي الفني معه، فوجدت نفسي أقول له: «إنت عارف إن المشروع الأحلى والأهم هو إنني أكتب مذكراتك كبيزنس مان في

بأكياس القمامة في كل ناصية، حاولت أن أشرح لها عبثاً أنني لا أطلب أبداً المستحيل وهو أن أعيش في مدينة ليس بها زباله مطلقاً، مع أنني رأيت ذلك في مدينة مثل إدنبرة الإسكتلندية التي بدا لي بعد فترة من الإقامة فيها أن أهلها يقومون برش مادة كيميائية تقوم بإخفاء الزباله لكي لا يراها أحد من زائري المدينة، قائلاً: إن فكرة وجود أكياس زباله توضع على النواصي عدة ساعات حتى تمر عربيات الزباله لجمعها في وقت معلوم تشبه تصوري عن المدينة الفاضلة. أخذت أحاول تبسيط فكرة حتمية الزباله في المدن الكبيرة لابتني، فقاطعتني قائلة: «طب ما هو طبيعي يبقى في زباله، بس برضه لازم إنها تتشال»، هززت رأسي موافقاً وأنا أدعو الله أن يخلص هذا المشوار سريعاً، خاصة أن تعليقها التالي كان بعد رؤيتها لجنينة دار العلوم: «بابا الجنينة دي شكلها يخوف أوي».

عندما دخلنا إلى مقر البنك المجاور للجنينة وجدناه مكيماً أكثر من اللزوم، قلت غاضباً: «مش فاهم ليه بيعملوا التكيف كده، هيجلوا الناس تعيا»، وهي كانت على ما يبدو قد لقطت حس البحث عن الإيجابيات من حديثي السابق، فقالت بثقة: «احمد ربنا إن ما فيش هنا زباله»، وأنا حمدت الله عليها وقلتها مع حضن جامد جداً، وبعد أن انتهينا من قضاء مشوارنا ساورني قلق من أن تكون نبرة التبرير قد زادت أكثر من اللازم، فأكون قد أقنعتها بحتمية وجود الزباله في الشوارع، مع أن ذلك ربما كان مفيداً؛ لأن الزباله لن تغادر شوارعنا سريعاً، لكن قلقي زال عندما وجدت بها عد أن أنهينا مشوارنا تقول لي راجية: «بابا ممكن نروح من طريق فيه زباله أقل».

ظل عهود مبارك وطنطاوي ومرسي والسيسي.. اللي إنت بتحكيه ده  
أخطر حاجة تقريبا سمعتها عن أحوال مصر؛ لأنك ببساطة بتحكي  
سيرة حياة الفساد اليومي اللي معشش في زواريق البلد».

انتفض كمن لدغته عقربة، وجرى على مصحف موضوع في  
دولاب قريب وأحضره ليحلفني على عدم نشر ما قاله؛ لأنه حكاة  
فقط للفضفضة مع صديق كي لا يطق من جنباه، وكشان أي مصري  
صميم أدرك أن الحلفان على المصحف ليس كافيا للالتزام بالعهد،  
فأصر على أن يُحلفني بحياة بناتي وصحتهم وعافيتهم لكي يضمن  
ألا أفتح فمي بما حكاه عن أسماء وأشخاص، ولكي أضعك في  
صورة ما حكاه دون أسماء أو تفاصيل كاشفة لكي لا أحنث بقسمي،  
يكفي أن أقول لك إن الرجل أثناء سعيه لشراء قطعة أرض ضخمة  
في منطقة قريبة من القاهرة كان سيقم مشروعاً كبيراً عليها، طلب  
منه ترخيص ما من جهة ما، وعندما ذهب إلى المسئول عن إصدار  
الترخيص، لم يطلب منه رشوة ضخمة ليعطيه تصريحاً بأنه لا مانع من  
بيع هذه الأرض؛ لأن الرشوة المالية أصبحت موضحة قديمة، بل طلب  
منه أن يدخل شريكا في المشروع بنسبة عشرة في المائة من خلال  
أحد أقاربه، ليبدأ صاحبنا في التفاوض مع الرجل المهم تفاوضاً  
فريداً من نوعه: هو يعرض على الرجل مبلغ رشوة مالية «توتو على  
كبتو»، والرجل المهم يخبره أن «الفلوس مش مضمونة وبتتصرف  
بسرعة»، ليقطع الاثنان تفاوضهما ليصليا المغرب عندما جاء وقته؛  
لأن «المغرب بيتسرق» كما تعلم، قبل أن يعودا ثانية للتفاوض بعد  
الصلاة، والتفاوض انتهى بأن صرف صاحبنا النظر عن المشروع  
أصلاً؛ لأنه لا زال من أنصار الدقة القديمة في الفساد، ولا زال أمامه

شبر من الوقت لكي يقتنع بفكرة الفساد المشارك الماكث الذي لا  
أأخذ حقه ناشفاً ويجري.

عندما ظل يُلِّك في طلب المزيد من التأكيد على أنني أكتب  
ما حكاه لي، قررت من باب العناد أن أقول له كلاماً يؤنب ضميره  
من أهمية أن يقول شهادته للناس؛ ليكونوا على بينة مما يجري لهم،  
ليكون هناك أمل في تغير البلاد، وهو ذهب إلى الدولاب وأعاد  
المصحف إلى مكانه، وقال بعدها: «دلوقتي أقدر أشخر وضميري  
مستريح»، وبعد شجرة قصيرة أخذ يحدثني طويلاً عن عدم جدوى  
«قول أي شيء عن أي شيء»، وأن الحديث في السياسة يمكن أن يتم  
التعامل معه بتسامح، لكن الحديث عن فساد البيزنس دونه قطع  
الرقاب، ولم يقطع انفعاله في الكلام سوى انقطاع النور المفاجئ  
الذي ذكرني أننا نجلس في الدور «الحاجة وعشرين» في برج أسمنتني  
عملاق ينقبض قلبي كلما مرت به، وفجأة لم يعد يشغلني لا مشروعه  
ولا مشروعي، بل أصبح كل ما يشغلني كيف سأزول كل هذه الأدوار  
على رجلي حتى لو عادت الكهرباء، لكي لا أغامر بانقطاعها ثانية  
وأنا في الأسانسير.

في أقل من لحظات عاد النور، وعندما اندهشت قال مفسراً: إن  
هناك شركة أجنبية متعاقدة على بناء مشروع سياحي داخل القاهرة،  
قررت - متعا لمهندسيها الأجانب من البهذلة المصاحبة لانقطاع  
الكهرباء المتكرر - شراء مولدات للعمارة كلها على نفقتها، قبل أن  
يضيف قائلاً في لهجة تليق بمسكين يسأل الله حق الشوق: «ده أنا  
بادعي لهم كل يوم والله.. تصور أنا ساعات باجيب المدام والأولاد  
من الفيلا في المربوطية عشان يقعدوا في التكيف بدل ما هم قاعدين

مخنوقين في البحر، والكهرباء بتقطع هناك بالساعات»، سأله مستغرباً: «طب ما تشتري مُولد للفيلا أحسن وتخلص»، وهو رد سريعاً دون أن يأخذ وقتاً للتفكير: «مش لو كنت هاقعد فيها أصلاً»، وبعد أن أدرك أن رده يجعل من قعدتنا كلها عبثاً لا طائل من ورائه؛ لأنه لا مبرر أن نتحدث في أي مشروع من أي نوع وهو يستعد لترك الجمل بما حمل، عاد ليحدثني بمرارة شديدة عن حبه لمصر وكيف حاول كثيراً أن يبقى ليستثمر فيها وإلا ما كان قد عاد مع كل عهد مستبشراً مشرباً، قبل أن يختم كلامه بعبارة ملحمية حين قال: «تصدق بالله أنا مرة في قعدة بقيت عايز أقولهم: طب أنا موافق تعلقوني هدومي، لكن سيوا لي الكلوت على الأقل».

حينها شعرت أن وقتي معه لم يضع هباءً منثوراً، فعلى الأقل أصبحت أعرف أنني ذات يوم سأكتب تفاصيل ما سمعته منه في كتاب سيكون وثيقة فريدة من نوعها تحكي كيف ظلت مصر تتردى من نقرة لدحديرة، وهو كتاب لن أجد له عنواناً أفضل من «سيوا الكلوت على الأقل».

٢٠١٤

## التخلل الانتكاسي

«لاحول ولا قوة إلا بالله. لماذا ندخل عصر الحروب ثانية يا ناس، ونحن ما صدقنا أن ابتدئنا بالسلام فردت الدنيا علينا بالسلام يا سلام ما سلام؟».

هكذا قلت لنفسي بعد أن قرأت التصريح الناري الذي أدلى به الرئيس مبارك لرؤساء تحرير الصحف القومية الذين سألوه عن سر نزايده الهجوم الأمريكي على مصر فقال لهم: «لأننا لا نسمع الكلام»، كنت قبلها قد استمعت إلى وزير الاستثمار محمود محيي الدين، أحد محاسيب جمال مبارك، وهو ينتع تصريحاً عترياً بأن «أمريكا ليست وصية علينا». فداهمني شعور بأننا أضبحنا على وشك دخول حرب ضد أمريكا الفاجرة الغاشمة التي قررت أن تحول بين الرئيس وشعبه، وتمنع أمن سيادته من إعانة المواطن المصري على أن يلتصق أكثر بتراب بلاده بعد سحله في الشوارع.

قضيت ساعات طويلة في محاولة تذكّر عنوان محل يمكن أن اشتري منه أكياس رمل لكي أضعها متاريس أمام باب الشقة فضلاً عن تدبير نبيلة زرقاء لدهن زجاج النوافذ، خاصة أن كل المتوفر حالياً هو نبيلة سوداء على دماغ اللي خلفونا.

قررت إرجاء البحث عن وسيلة لتدبير أكياس الرمل والنبالة الزرقاء بعد وضع خطة تموين عاجلة لمواجهة الأزمات التي ستجلبها الحرب التي أطلقها جمال ورجاله بعدد من التصريحات النارية ضد كيد المعتدي. ولحسن حظي أنني أخرت شراء الاعتمادات التموينية والتأمينية اللازمة يوما واحدا، فقد اتضح فجأة أنه في عز الحرب التي كدنا نخوضها مع أمريكا، كان السيد جمال مبارك ذات نفسه يمثل أمام سادة البيت الأبيض في لقاء حضره بصفته قياديا بارزا في الحزب الوطني الديمقراطي، وليس بصفته ابنا لرئيس الدولة.

لن نعرض لاسمح الله على زيارة كهذه، ولا على كونها لم تكن معلنة للشعب المصري الذي عرف نبأها من وسائل الإعلام الأجنبية فهذا ليس من حقنا كمواطنين «أديسيس خرسيس يتأخذ بالجزمة على مظاهرتنا»، لكننا فقط كقراء مخلصين للصحف القومية وكعشاق مدمنين لتصريحات السادة الذين في الوطني باركهم الله، لا ندري هل من حقنا الآن أن نتهم الحزب الوطني الديمقراطي بأنه حزب عميل للولايات المتحدة الأمريكية، كما اتهم الصحف الحكومية قيادات الأحزاب المعارضة والحركات الاحتجاجية إذا التقى أحدها بمسئول أمريكي أو بموظف سفارة أمريكية أو حتى بناشط حقوقي أمريكي. ولا ندري ما هو الفرق الآن بين جمال مبارك وسعد الدين إبراهيم وأيمن نور وهشام قاسم وحافظ أبو سعدة وغيرهم من ناشطي حقوق الإنسان الذين اتهمهم صحف الحكومة عمال على بطل بأنهم يقومون باتصالات مشبوهة مع الأمريكان، ولا نفهم هل احتاط جمال مبارك فـ«طلع فيش وتشبيه» لاتصالاته مع الأمريكان

وانت أنها غير مشبوهة، ولماذا لا يتاح لهؤلاء وغيرهم استخراج من لاتصالاتهم لكي يفنوا عنها أي شبهات؟

لا نريد أن نظلم أحدا فالحزب الوطني نفسه يقول على موقعه الإلكتروني إن لقاء جمال مبارك كان بهدف تعريف الإدارة الأمريكية «أحدث تطورات مسيرة الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، هي فيما يبدو المسيرة الوحيدة التي تستثنى من قرار الداخلية بحظر كافة أشكال المسيرات، فليس معقولا أن يتم منع مسيرة يقودها نجل رئيس الجمهورية، وليس واردا أن يتم تطبيق إجراءات الإصلاح الحداثي» على مسيرة جمال مبارك مثلما يتم تطبيقها على كافة المسيرات والمظاهرات التي يُضرب فيها المتظاهرون بالجزم.

لكن الوحشة قناة الجزيرة التي فقت الزيارة السرية بالصدفة نقلت من مصادر سياسية أمريكية أن جمال مبارك تلقى توبيخا شديدا من المسؤولين الأمريكان وعلى رأسهم جورج دبليو سي بوش، بسبب ما حدث في مظاهرات الخميس الأسود - بفضل الحكم المبارك أصبح كل خميس لدينا أسود من الثاني - وقالت المصادر إن هدف زيارة جمال مبارك كان التخفيف من حدة الانتقادات التي أعلنها البيت الأبيض بحق الحكومة المصرية، وبما أنه لم يتم نفي كلام كهذا صراحة، أصبح علينا أن نسأل بماذا رد جمال مبارك على هذا التوبيخ أو اللوم أو حتى همسة العتاب الرقيقة كما تصورها الصحف القومية؟

موقع الحزب الوطني يقول إن جمال مبارك حاول أن يشرح أن عملية نشر الديمقراطية تتخللها انتكاسات، ونحن نعرف ذلك طبعا؛ لأننا شعب يحب المخلل والتخلل، ناهيك عن كوننا شعبا متعودا

على الانتكاسات بحكم انتشار أمراض الضغط والقلب والسكّر  
بيننا؛ بفعل أزهى عصور التخلخل على الكرسي، بالطبع نشكر سيادته  
على هذا التوضيح لكننا نحب أن نعرف منه ما هي مواعيد التخلخلات  
التي ستتسكس فيها العملية لكي نكون جاهزين بالجلوكوز والشاش  
والقطن، نعلم أن الانتكاسات «حاجة في علم ربنا» وليس من حق  
بشر أن يطلب تحديد موعد لها، لكننا نسأله بحق ذكرياتنا وحبنا  
الجميل والعيش المدعم وملح السيلالات المغشوش، أن يعطينا  
«رينجا» لهذه الانتكاسات لكي نحدد مواعيد نزولنا إلى وسط البلد  
التي وحشنا التجمع فيها.

عن نفسي فرحت بهذه الزيارة لأنها شرحت لي موقف السيد  
جمال مبارك الذي تساءلت فور مشاهدتي لصور الإصلاح الحداثي  
التي طالعت المظاهرين في وسط البلد عما إذا كان قد شاهد هذه  
الصور وما هو موقفه منها باعتباره لا يتوقف دائما وأبداً عن التأكيد  
على أن مسيرة الإصلاح لن تتوقف أبداً؟ كنت أريد أن أعرف منه  
شعوره وقد توقفت المسيرة لركل بعض الذين أرادوا أن يشاركوا  
فيها، كنت أريد أن أعرف منه ومن زملائه الذين يتحدثون طيلة الوقت  
عن المواطنة وحقوق الإنسان والفكر الجديد ما رأيهم في إصلاح  
سياسي يمنع حق التظاهر ويضرب الأبرياء العزل بالبيادة؟ وما هو  
موقفهم الإنساني لا السياسي من هتك عرض صحفية شابة اسمها  
عبير العسكري خرجت لتأدية واجبها المهني؟ وهل غلت الدماء في  
عروقهم وهم يشاهدون منظر تلك السيدة الخمسينية الممتمة لحزب  
الغد وهي ملقاة أرضاً شبه عارية على عتبات بوكس إصلاحي أزرق،  
أم أنهم مربكون تكييفاً لعروقهم بحيث لا تغلي أبداً؟

لم يعد هناك مكان لهذه الأسئلة كلها بعد أن أعلن السيد جمال  
مبارك أن الحكاية كلها «شوية انتكاسات ساعة تروح وساعة تيجي»،  
صحيح أنه اهتم بأن يعلن ذلك للأمريكان الذين كنا نظنهم كُخّة  
وليس من حقهم أن يسمعوا منا أي تفسير عما يحدث في بلادنا،  
ولم يهتم أن يعلن حكاية التخلخل الانتكاسي للشعب المصري الذي  
ارتمته الداخلية بعدم الخروج من بيته يوم الخميس، وهو قرار  
محارب جهود الدولة في تنظيم الأسرة في مقتل؛ لأن المواطن إذا  
جمع من التجمع خارج بيته فسيجتمع بزوجه داخل البيت وسينتج  
من ذلك التجمع مجيء أجيال قادمة، على الدولة أن توفر لهم الغذاء  
والكساء ومعاهد الأورام، وقبل كل شيء عناصر الأمن المركزي  
التي ستضربهم بالجزمة.

عموماً «إحنا أو الأمريكان ما فرقتش»، خاصة أننا عدنا أصدقاء  
من جديد وسنسمع الكلام، ولن نشعر بحرج من المعونة لأن «النبى  
قبل الهدية والرئيس قبل المعونة»، ولن نضطر لشراء أكياس الرمل  
والنيلة الزرقاء، كما أننا وهذا الأهم لن نسأل أي أسئلة من أي نوع،  
فالبركة في الأمريكان وأسألهم، فقط يبقى سؤال وحيد للسيد جمال  
مبارك رائد (التخلخل الانتكاسي)، ربما لم يسأله الأمريكان بمناسبة  
اندلاع الإصلاح الحداثي وازدهار موسم تصفيات الأحذية الدائر  
في البلد: ألا هو مفاص جزمة حضرتك كام؟



في الوقت الذي كان أعضاء لجنة الخمسين منهمكين في المفاضلة بين كون «مصر تاجا على رأس إفريقيا» أو بين كونها «رأس إفريقيا» صافا من غير تاج، كانت الخارجية المصرية تصدر بيانا تحذر فيه شباب مصر من عواقب الهجرة غير الشرعية إلى زامبيا. وفي حين أن أعضاء اللجنة يتبارون في الإشادة بفتوحات دستورهم في مجال الحريات، كان ثلث من المخبرين والأمناء يعقون شائبا متظاهرا من «حاشيمه كتويج لالتحام الداخلية بالشعب، وكان زملاء لهم يظهرن في فيديو وهم يضربون القيادي الإخواني عيد مرجونة على قفاه وهو معصوب العينين، في حين يقول له أحدهم: «الليلة هيدخل مايكي عسكري يا سوسو». وفي حين كان أعضاء اللجنة سيكون من فرط التأثر بهدايا الكرامة التي يقدمونها للأجيال القادمة، كان علاء عبد الفتاح ينام في زنزانته حافيا مقيد اليدين إلى الخلف، بينما كان الضباط الذين اقتحموا بيته وضربوا زوجته ينامون في بيوتهم شاعرين بلذة الانتصار على أخطر رجل في مصر. وفي حين كان من سبق لهم أن هيجوا الدنيا ضد كتشين الإخوان للمحاكمات العسكرية للمدنيين، يتحدثون الآن عن المواءمات السياسية التي تستوجب دسرة تلك المحاكمات مؤكدين أنها لن تضر بريئا أبدا، كان رئيس هيئة القضاء العسكري يؤكد أن خناقتك مع عمال بنزينة وطنية ستدخلك إلى جنة القضاء العسكري، ف«مؤن من سكات» وقل نعم للدستور. وفي حين كان الخبراء الدستوريون يخوضون مناقشات محتدمة حول صلاحيات رئيس الجمهورية، كان شاب يكتب على أحد القصور الرئاسية بالإسراي عبارة «الحرية لعدلي منصور»؛ ليعلن انتصارا جديدا لدولة الخيال على دولة الديباجة الموجودة على الورق.

## العاشون في الديباجة!

ربما كان أفضل وأجدى لو استبدل الشاعر الكبير سيد حجاب ديباجة دستور ٢٠١٣ البائسة التي صارت حديث الركبان ومسخرة الزمان، بعبارة شعرية من تأليفه يبدو أنه نسيها في زحمة الحياة، كان قد لخص فيها أحوال مصر منذ قديم الأزل بقوله: «إزاي هنمشي عيدل والسكة معوجة؟».

أعلم أن كثيرين يعتقدون أن ما سيجعلنا نمشي عيدل ويرحمنا من كوارث السكة المعوجة هو الدستور وحده، وغدا ستعلمهم التجارب كما علمت غيرنا من الشعوب، أن ماشطة الدستور لن تفعل شيئا لتغيير الواقع العكبر؛ لأن الدساتير لا تصنع لإجبار الناس على السير في طريق الحرية والعدل والعقلانية، بل يصنعها الناس بأنفسهم بعد أن يتوافقوا على أنه لا طريق لتقدمهم سوى الحرية والعدل والعقلانية؛ ولذلك لم يعيش أبدا في تاريخ الشعوب دستور تمت كتابته في ظل حالة صراع أو استقطاب؛ لأن الدساتير التي تعيش طويلا هي التي تكتب بتوافق شعبي بين الناس على المبادئ التي يريدون أن يعيشوا في ظلها أطول فترة ممكنة، وفي ذلك قال الشاعر: «لو الدساتير بتنفع كان دستور الغرياني نفع نفسه».

حسناً، أنت غاضب الآن؛ لأنني أسخف من عظمة الإنجاز الدستوري القادم، وتوقع مني أن أنجز إلى تفاصيل الفرق بين مواد الدستور الغرياني والدستور «المصري»، وأنا لن أفعل احتراماً لمبدأ «ما تدلخنيش في تفاصيل يا مدحت»، وإيماناً بأنك لو أنيت بأعظم دستور في العالم ينظر إليه جميع سكان الأرض بعين الغبطة وطبقته في مصر، فستندب في عين الغبطة رصاصاً من باشا جلع يرى نفسه أعلى من كل دساتير الأرض.

بلغني أن الدستور الألماني يبهرك كثيراً، جميل، طيب، ما هي أعظم مادة أثارت انبهارك فيه؟ هل هي مادة «كرامة الإنسان موفورة» التي تقول كل شيء يتمناه الإنسان في ثلاث كلمات دون رطوبة ولا إنشاء؟ طيب، أعط هذه المادة لأحد لواءات الداخلية «المبدورين» في الفضائيات وسيصبح نص المادة «كرامة الإنسان موفورة» وكل من يدوس عليها سيأخذ بالجزعة، ولن تجد المادة المعدلة مشكلة في الحصول على نسبة تصويت عالية، فبالدنا مليئة بمن يؤمنون بنفس ذات اليقين أن الشعب المصري عظيم ورائع وما ييجيش إلا بالعين الحمراء.

سيقول لك أي كتاب محترم عن تاريخ الدساتير إن الدستور ليس سوى انعكاس لتوازن القوى في المجتمع الذي يكتبه؛ ولذلك لن تستغرب عندما تجد أن شهداء ثورة يناير تم ذكرهم مرة وحيدة على استحياء في ديباجة الدستور، بينما تم الإشادة بدور الجيش أربع مرات في بروجرام واحد، وفي حين قرر كاتبو الديباجة أن يتدعوا بدعة ذكر الأسماء في الدستور فلم يتركوا زعيماً سياسياً شهيراً في القرن العشرين إلا وذكروه، بل إنهم تقطعوا بوصف عبد الناصر

الزعيم الخالد مجاملة لدولة يوليو التي أجلستهم في كراسيهم دون انتخابات حرة، فإنهم لم يشيروا بالأسماء ولا حتى من بعيد إلى الدور الذي لعبه الكتاب والأدباء والفنانون والعلماء في تشكيل وجدان الشعب المصري؛ لكي لا تظن الأجيال القادمة التي يفترض أنهم يكتبون لها الدستور أن تاريخنا هو تاريخ سياسيين وزعماء فقط؛ بل الأجيال التي كان سيحسن كاتبو الدستور إليها لو أدركوا بأنه إذا كان من يستحق وصفه بالخلود في دستور الشعب فهو الشعب وحده، طبقاً لعبارة عظيمة كتبها سيد حجاب ونسبها أيضاً، كانت تقول إن «الباقي هو الشعب ولا في قوة ولا صعب يهد عزم الشعب».

على سيرة البقاء، ربما كان حظ هذا الدستور في البقاء أفضل من سابقه بحكم أنه محمي بقوة السلاح، لكن المؤكد أنه سيبقى مثل الدساتير السابقة على الورق فقط؛ لأنه لا يخص إلا كاتبه والقوى التي يمثل مصالحها و«الفقهاء» الدستوريين الذين تتحدد مواقفهم من أي دستور طبقاً لكونهم شاركوا في كتابته أم لا، في حين سيبقى «دستور الغابة» المنظم الحقيقي للحياة في مصر كالعادة؛ حتى تتمكن الأجيال الشابة - التي ليس لها كتالوج ولا ريموت كونترول - من فرض دستور يعبر عن خيالها الجديد الذي لا يرضى لمصر بأنصاف الحلول، ولا يقبل بتلفيقات «خلي شوية عليّ وخلي شوية عليك»، وحتى يحدث ذلك يوماً ما، سيبقى من هذا الدستور شيء مهم في وجدان الناس، هو أنهم عندما يصفون شخصاً بأنه غيب عن الواقع وغير مدرَك لحقائق الحياة من حوله، لن يقولوا إنه «عاشش في البلالة»، بل سيقولون إنه «عاشش في الديباجة».

«معتقل في أحد المعتقلات الوطنية الديمقراطية المباركة أم أنه ملحق وحي لا يرزق، لكن الذي أدريه أن ذلك الشاب المغدور ظل «التأكيد يسأل نفسه طويلا عن سر ماحدث له، وعن الذي دفع إخوته في الوطن من أبناء الشرطة «خادمي الشعب» لكي يعاملوه بكل هذه الوحشية، ولذلك فكل ما أتمناه الآن أن تكون الفرصة قد سنحت له لكي يشاهد أو يستمع أو يقرأ خطاب الرئيس مبارك في منتدى «افوس» لكي يهنأ نفساً ويقر عيناً، ولا يسمح لشيطانه أن يوسوس له بأن الرئيس مبارك تراجع عن الإصلاح السياسي الذي اشتهر بإنتاجه وتصديره.

كل ما في الحكاية أننا فهمنا الرئيس مبارك خطأ أثناء حملته الرئاسية الأخيرة فألقي في روعنا أنه مع بدء ولايته الجديدة سيملاً «صبر عدلاً وإصلاحاً وديمقراطية، كما ثلثت في ولاياته السابقة هو وسابقه شمولية وطوارئ وأمناً مركزياً، ولأننا كمصريين نعاني عيباً شائعاً في تعاملاتنا الحياتية هو أننا لا نجرب الحاجة قبل أن نشترىها، ثم نشكو من أنها بايظة أو ضيقة أو خرج مصانع؛ لذلك فإن الشاب ذا التي شيرت الأحمر والذين معه على اختلاف ألوان تي شيرتاتهم اندفعوا إلى الشوارع لممارسة ما ظنوه حقوقهم الديمقراطية من تظاهر وهتاف واعتراض وتضامن مع القضاة، دون أن يسألوا أولاً عن مقاسات ومواصفات الديمقراطية المسموح لنا بها؛ ولذلك جرى لهم الذي جرى لهم، ولذلك - وهذه آخر لذلك وربنا أستخدمها الآن - ومن موقع المسؤولية الأبوية الرئاسية كان لزاماً على الرئيس مبارك أن يشرح لهم في أقرب فرصة سر ما جرى لهم؛ لكي لا يتركهم فريسة لوساوس الشيطان وأحبابيل النفس الأمارة بالسوء،

### التدريجيون أنت إمامهم!

ما إن استمعت إلى خطاب الرئيس مبارك في منتدى دافوس بشرم الشيخ حتى قلت في عقل بالي: «الآن آن الذي التي شيرت الأحمر أن يستريح».

وإذا كنت قد نسيت من هو صاحب التي شيرت الأحمر فدعني أذكر بك، إنه ذلك الشاب المغدور الذي تناقلت صورته وكالات الأنباء العالمية وهو محاط بثلة من العساكر والضباط والبلطجية الميري وهم يكيلون له البوكسات والشلايت والقفبان، وعلى وجهه ترسم علامات ذهول لا ينبع من الإحساس بالألم والمرارة بقدر ما ينبع من إحساس عارم بعدم فهمه لما يحدث له، كأنه يريد أن يصرخ في الباطشين به: «بتعملوا كده ليه؟ ده أنا باقول رأيي بشكل سلمى ديمقراطي.. مش سيادة الرئيس بيدعو المواطنين للمشاركة السياسية ويبيحذرهم من السلبية؟ مش إحنا في أزهى عصور الحريات؟ بتعملوا كده ليه؟ ما تودوش نفسكو في داهية.. لو الرئيس شافكو وإنتم بتعملوا كده فيا هيزعل قوي منكو»، في الحقيقة لا أدري إذا كانت زمرة المحيطين به قد أعطته الفرصة لكي ينطق أساساً وهم يعمونه ويخرسونه ضرباً بالنواصي والأقدام، ولا أدري أين هو الآن هل

حيث أعلن سيادته في مؤتمر دافوس - شرم الشيخ «دعوة لإصلاح ديمقراطي تدريجي لا يؤدي إلى الفوضى وينبع من داخل المنطقة ومن فوق أرضها ويحاذر من طفرات متسعة تعجل نتائج»، لقد كانت هذه الجمل القصيرة بمثابة عصا موسى التي تلقف ما يأفك المعارضون والمشكلون في مسيرة الإصلاح الذين حاولوا بعد ما حدث لذي التي شيرت الأحمر أن يوهمو الناس أن الرئيس تخلى عن عودته بالإصلاح السياسي الشامل والكامل، بينما هم يعلمون أن الإصلاح تدريجي وليس شاملا، ألا ساء ما يزرون، لكن الرئيس مبارك بحمد الله فضحهم وأكد أن إصلاحنا تدريجي، وبما أنه تدريجي فهو يتحمل أي انتكاسات كالتي حدثت لذي التي شيرت الأحمر، والحمد لله نحن كشعب نحب التدريجي قوي سواء في الإصلاح أو غيره، ولا نحب الإصلاح الشامل أو السريع أبدا، فالشامل والسريع يتعباننا ويحدثان لنا مضاعفات لأننا أصلا كشعب صحته على قده ولا يتحمل الشامل والسريع أبدا، ولا يمكن أن يفهم أهل المعارضة في كفاية وأخواتها مصلحتنا أكثر من رئيسنا، فإذا كانوا قد طلعا لنا في المقدر من سنتين إلا قليلا فريستنا «معاشرنا» منذ أكثر من ثلاثين عاما ككتاب ثم كرئيس، وهو أدري بنوع الإصلاح الذي يلق معانا ويحل مشاكلنا، وما دام سيادته شايف إن الإصلاح التدريجي أنسب لنا فليفعل بنا ما شاء، بارك الله له فينا وبارك لنا فيه وجمع بيننا على خير.

بعد أن قلت: آمين، دعني أعلن لك رفضي لتخرصات العديد من المعارضين المغرضين الذين ما إن سمعوا كلمة تدريجي وهي طالعة من خطاب الرئيس حتى طفقوا سخرية واستهزاء وتشكيكا، عاداتهم

يشتروها، فأخذوا يتندرون على حكاية الإصلاح التدريجي سائلين: «هل هو تدريجي لفوق ولا تحت؟ يعني جرت العادة أن ضرب المتظاهرين بالعصي الكهربائية والخشبية.. ثم أصبح يتم حلهم في الشوارع وضربهم بالأحذية وهتك عرض المتظاهرات.. فهل هذا محسوب ضمن التدرج، أم لا؟ وهل يمكن أن نفهم التدرج القادم بأنه ضرب بفرقة الجزمة اليمين ثم بالفردة الشمال؟»، وهؤلاء أقول: خستتم إن الضرب التدريجي يتم بالفردتين معا في نفس الوقت لكي لا ينطق أي عميل منكم بتشيعة من تشيعاته، كما أن قياس اتجاه وحجم التدرج أمر ليس من سلطتكم تحديده، بل هو قرار سيادي من حق أجهزة الدولة وحدها، فهي أدري بالاتجاه الذي يحتاج المواطنون له «التدريجي» فيه، كما أنها تتبع أحدث ما توصل إليه العالم من تكنولوجيا في التدرج، وعلى رأسها أن التدرج أمر متغير بحسب الظروف، فإذا كانت المصلحة الوطنية تقتضي أن يتم ضرب ذي التي شيرت الأحمر بالجزمة، فربما تغيرت الظروف التدريجية في المظاهرة القادمة وتمت العودة لضربه بالعصا فقط، وإذا كان التدرج يقتضي تمزيق ملابس صحفية وهتك عرضها، فقد يقتضي التدرج هتك عرضها من فوق الهدوم في مظاهرة أخرى، ولو كنتم على صلة بنظرية النسبية لأينشتين لعلمتم أن العالم قد تجاوز من زمان وإلى غير رجعة حكاية أن تكون هناك قواعد ثابتة للإصلاح والتعامل مع المواطنين، خاصة والمواطنون كما يبدو لم يشترك أحد منهم من التدريجي أبدا، بل هو على أفتيتهم وأجسادهم زي العسل بحمد الله.

تخرص آخر أطلقوه هؤلاء المعارضون يقولون فيه وبش ما قالوا:

« هو اسمعنى التدرّيج في الإصلاح بس؟ ليه ما يبقاش في تدرّيج في الفساد.. أو تدرّيج في نهب المال العام.. أو تدرّيج في بيع القطاع العام.. أو تدرّيج في الانحياز للأغنياء وسحق الفقراء؟»، ولهؤلاء أقول: خستّم مرة أخرى بل وخستّم إلى الأبد، من قال لكم إن التدرّيج يتم تطبيقه في الإصلاح؟ كيف سولت لكم أنفسكم الظالمة أن تنكروا أن هناك تدرّيجا في بقاء الرئيس مبارك على الحكم، يعني ألم يقل سيادته أولا إنه لن يرشح نفسه لفترة رئاسية ثانية ثم باسم الله ماشاء الله آدينا داخلين في الفترة السادسة وبتكلم في السابعة، تدرّيج ده ولا مش تدرّيج؟ بلاش، كيف تنكرون أن هناك تدرّيجا في توريث جمال مبارك وإيصاله إلى كرسي الحكم، ألم يُقَلَّ في البداية إنه مجرد شاب بهي الطلعة بيحب مصر زيادة عن اللزوم ويريد خدمتها من خلال جمعية شباب المستقبل والعمل الأهلي، وكلّما اعترض أحد على ذلك قلنا له: وإنت مال أهلك ده عمل أهلي، ثم فجأة وجدناه يدخل في زواريق الحزب الحاكم ليمارس العمل السياسي داخله، ثم فجأة وجدناه يشكل لجنة قالوا لنا إنها لجنة للتصورات والأفكار والسياسات ليس إلا، ثم اتضح أنها هي التي تختار الوزراء وتعزلهم وترسم سياسات وخطوات الحزب وتعين قياداته، ثم أصبح أميناعاما مساعدا وفي كلام على أنه سيصبح أميناعاما للحزب مرة واحدة، طب بزيمة النبي يا ظلمة تدرّيج ده ولا مش تدرّيج؟ أما ما تقولونه عن عدم تطبيق التدرّيج في الفساد والنهب وبيع القطاع العام فهو يدل على جهل فادح وقاضح من قبلكم، كما أنه يكشف عدم حبكم لأهل بلدكم الطيبين، فلو كنتم تحبونهم حقًا لعلمتم أن التدرّيج في الفساد والنهب والبيع أمر متعب صعبًا ومرهق نفسيًا ومدمر

«صبيًا، وسأضرب لكم مثلا بسيطا لكي تفهمه عقولكم القاصرة.. عندما يصاب المرء منكم بجرح - يا رب ما تخفوا منه - ويضع عليه البلاستر، ثم يأتي موعد تغيير الجرح، هل الأفضل أن يتم نزع البلاستر مرة واحدة، أم أن يتم نزعها بالتدرّيج؟ بالطبع يعلم القاضي والداني في بلد المجاريح مصر أن نزع البلاستر مرة واحدة أفضل من نزعها بالتدرّيج، وهذا ما يفعله النظام المبارك بشعبه الطيب، فهو ينزع ثرواته ومصانعه وأمواله العامة مرة واحدة؛ لكي لا يشعر بالم على فقد هذه الثروات والمصانع والأموال العامة. عرفتم بقى أن التدرّيج مش لعب عيال ومش أي حد يدّرّج، وأن الموضوع فيه تخطيط جامد وفوق مستوى ذكاء المواطن المعارض أو الساخط.

أتمنى أن أكون قد أوضحت ما فهمته من خطاب السيد الرئيس عن الإصلاح التدرّيجي في منتدي دافوس المنعقد بشرم الشيخ، والذي تزامن مع دفن المعتقلين داخل البوكسات وشرمهم في شوارع القاهرة، وتدرّيج ملفات جديدة لهم داخل أذراج أمن الدولة، ولعل شرحي هذا يسهم مستقبلا في اختفاء ملامح الدهول النابع من عدم الفهم على وجه أي ذي تي شيرت أحمر يتم سحله في أي مظاهرة قادمة، ولا أراكم الله دافوسا داخل بوكس لديكم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه وأسألوه أن يخلصنا مما نحن فيه فوراً ودون تدرّيج.



بصفحه المحافظ تزداد فرصته في الحصول على شقة من شقق المحافظة، لو قرر عدم «عمل سياح في الجرايد».

ستكون إجابتك مثالية لو أدركت أن خطأ المحافظ يكمن في «سلة» وما صدقنا تهداً التي تصلح كنموذج للطريقة التي يفكر بها كثير من أفراد سلطة اللواءات في التعامل مع أوضاع البلد والتي يمكن تلخيصها في الآتي: «حصل في البلد مطلع ٢٠١١ أحداث «ول الأجهزة الأمنية السيادية إنها مؤامرة خارجية، ويقول البعض إنها مؤامرة استغلت أخطاء ابتعاد سيادة الرئيس الأسبق مبارك عن العسكريين واعتماده على المدنيين الذين خربوا البلد، ويرى البعض أنها ثورة شعبية حماها الجيش واستغلها المخربون والغوغاء، وأياً كان ما حدث لن نختلف، كل ما في الأمر أن الموضوع خلاص انتهى، والبلد هدأت وكل من يفكر في زعزعة هذا الهدوء سنفعّل معه أي حاجة لتخليها من أجل مصلحة الوطن».

لن أسألك عن الذي كان سيحدث في البلاد لو كان قيادي إخواني قد أطلق هذا التهديد بالصفع، أي مناحة كانت ستصيب في البلاد حتى تتم إقالته، ولن أسألك لماذا لم تنصب نفس المناحة عندما قام محافظ البحيرة قبل شهرين بصفع عامل نفاذة لأنه حصل على فتاحة من مواطن، مثلما حدثت مناحة عندما تم إطلاق الكلاب البوليسية على المتظاهرين الذين حاصروا محافظ كفر الشيخ الإخواني السابق؟ لن أسألك عن هذا فأنت أصبحت تعلم أن كرامة المواطن تخضع لشريعة «الخيار والفاقوس» مثل العدالة ومثل حرية الإعلام ومثل حرمة الدم، فكل هذه ليست سوى أوراق كلينكس نستخدمها عندما توافق مصالحنا، ونبصق فيها عندما لا تكون على كیفنا.

## ما صدقنا تهداً

لنخرج الخطأ من الفقرة التالية التي قالها اللواء سماح قنديل محافظ بورسعيد لخطباء وأئمة مساجد محافظته: «أقسم إنه من سيخالف هذا الكلام لن يجد إلا أشد صفة على وشه بكل ما تحويه الكلمة من معنى، يعني من يخالف كلامي هيتحاسب وهيتحاكم وهيتزيم وأي دابة بخيلها هاعملها، البلد فيها مشاكل وما صدقنا تهداً».

بسم الله الرحمن الرحيم، إذا كانت إجابتك أن خطأ المحافظ يكمن في تهديده الخطباء والأئمة بالصفع على الوجه، فهي للأسف ليست الإجابة النموذجية؛ لأن أحد المشايخ المرصوفين أمامه في الباب الذي نشرته صحيفة (المصري اليوم) يصل إلينا صوته وهو يقول: «توكلنا على الله»، ومع أننا لم نفهم هل كان فضيلته يقصد أن «توكلنا على الله هنتصفع»، أم «توكلنا على الله هيتعمل فينا أي حاجة نحبها»، إلا أننا لم نسمع منه أو من بقية المشايخ عبارات رفض والتكاذب تذكر المحافظ بقصة مقولة عمر بن الخطاب: «متى استعبدتم الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً»، وهي القصة التي لا يوجد خطيب إلا «وراءها مليون مرة في حياته للتدليل على عدل الإسلام؛ لذلك يظل استكراه الصفع مسئولية كل مصفوع، خاصة وقد علمتنا التجارب أن

ليس عندي أدنى شك أن اللواء المحافظ كان يقول كلماته بحماس وهو يستحضر في داخله ثقل أعباء منصبه، وليس عندي أدنى شك أن هناك كثيرين لو قال لهم المحافظ تهديده سيكون ردهم أيضاً: «توكلنا على الله»، خاصة إذا كانوا من أنصار مدرسة «إحنا مانجيش غير بكده»، ولكن كل هذا لا يقلقني بقدر ما يقلقني اليقين الذي قال به اللواء المحافظ: «وما صدقنا البلد تهدا». أعلم أنه قالها قبل كل ما حدث في محمد محمود وسيناء، لكن يبقى مع ذلك أن نسأل: هل كان البلد هادئاً قبل ذلك، وهل سيكون هادئاً بعده، وهل هناك أي قرار يدعو للهدوء تم اتخاذه منذ لحظة التفويض الميمونة؟ وهل ما نقرؤه عن التقارير الأمنية التي تؤكد أن ما جرى منذ ٢٥ يناير لم يكن سوى مؤامرة خارجية، سيساعد سلطة اللواءات على تهدئة البلاد؟ ومتى يدرك الجميع في هذه البلاد حكماً ومحكومين أن الوضع في مصر أعقد وأخطر من الانشغال بتفاهات: هل كانت ٢٥ يناير ثورة أم مؤامرة، وهل كان ٣٠ يونيو ثورة أم انقلاباً؟ لأننا أمام بلد منكوب بحكامه ومحكوميه، فهو ما إن بدأ يتعافى من آثار هزيمته ويسترد أنفاسه بعد نصر ٧٣، حتى بدأت حملات النهب المنظم لتجريف ثرواته البشرية والمادية والتي ثار في ٢٠١١ لإيقافها، حالماً بأن يضع قدميه على أول الطريق إلى المستقبل، وها أنتم تريدون له الآن أن يصنع نسخة أخرى من ماضيه المشوه.

للأسف، «ما صدقنا تهدا» ليست جملة عابرة بل هي عقلية راسخة في تفكيرنا السلطوي، كان يفكر بها عبقرى آخر هو الذي أخذ قرار بناء نصب تذكاري في ميدان التحرير يذكر الضحايا بأن قتلهم لا زالوا دون عقاب، وعبقرى آخر قرر أن يكتب بيان الداخلية الذي

جه التحية لشهداء محمد محمود، وبالمرة يقوم بتحميل مسئولية «ما نهم هم وسابقهم ولا حقهم للإخوان، مفترضاً أن من كانوا إلى «سوارهم وهم يقتلون برصاص الداخلية وقتها إما قتلوا برصاص الداخلية أيام كانت تقتل من أجل مرسي وإما هاجروا وإما فقدوا «أكرتهم وإما فقدوا شرفهم».

العابرة إياهم فكروا بنفس المنطق الذي فكر به من جلسوا على نفس مقاعدهم منذ الخمسينيات وانت نازل ومتدحدر: «الموضوع خلص والإخوان شالوا الليلة فيالله بالمرة نفقل الملفات دي كلها، وأهو نصب تذكاري على كلمتين حلوين على التعويضات اللي اتدفعت ، كل سنة وانت طيب، وخلينا نبص لقدام بقى واللي مش هيعجبه الكلام «يبقى إما إخوان وإما شيوعيين وإما طايبور خامس أمريكي إسرائيلي». نخيل لو كنت قلت لك منذ أسبوع إن تركيبة «إخوان وشيوعيين» التي ظلت متداولة لتوصيف العدو الداخلي طيلة عهدي عبد الناصر والسادات ستعود ثانية للظهور، كنت ستسخر مني بالتأكيد، لكن أديها ظهرت في صحيفة الدولة الرسمية على لسان مصدر مسئول معلّقاً على هدم متظاهرين للنصب التذكاري، الذي لم يكن أحد سيقرب منه لو كانت الحكومة قد تذكرت خطورة النصب باسم الشهداء، وقررت أن تسمي كتلتها الخرا.. سانية القبيحة «نصب ما صدقنا تهدا».

ستهدأ بالعدل يا سادة، والله لن تهدأ بغير العدل، وإلا كان غيركم أشطر.

## انتخبوا الرئيس الطائر!

منذ أن قرأ أحد أصدقائي عن الجولات الطائرة التي سيقوم بها الرئيس مبارك باستخدام الطائرة الهليكوبتر لكي يلتقي بأفراد شعبه المحب حتى امتنع تماما عن الخروج إلى البلكوته بصحبة كوباية الشاي المغلي وهي العادة العلنية الوحيدة التي يحرص على أدائها والاستمتاع بها، فبقي عاداته كلها سرية والعياذ بالله... وليس الأمر أنه لا يحب لقاء الرئيس أو يكره أن يظل في انتظاره مثل أم كلثوم «حاططا إيدته على خده وعاددا بالثانية غيابه»، بل كل ما في الأمر أنه يخشى أن يسرح في مراقبة نساء الجيران وهن ينثرن الغسيل ثم يفاجأ بالرئيس أمامه يلوح له من الهليكوبتر فتندلق منه كوباية الشاي وتسقط على عم جودة بتاع الفحم الذي يفرش بضاعته أمام دكانه، ولأنه لا يقوم بشرب الشاي إلا وهو سخن مولع فحتمًا سيشتعل ذلك الفحم ويتسبب للحارة في كارثة هي في غنى عنها، خاصة أنها لا زالت تتعافى من آثار انفجار ماسورة المجاري التي استندلت وانفجرت لكي تخرج نظام الرئيس مبارك الذي لم يقصف في عهده قلم ولم تنفجر ماسورة مجاري ولم يستيقظ ضمير رئيس تحرير.

وما زاد من مخاوف صديقي هو ما قرأه في (الأهرام) أن الدولة

ستوفر لكل مرشح يقدر على دفع ثمن الطائرة فرصة استخدامها ليقوم باللف على أنحاء المحروسة آخذا الجماهير في حضنه، عشان مايقاش في حد أحسن من حد، ومن ساعتها وصديقي متخيل أن «الهروكبت» كما يسميها يمكن أن تحط على سطح بيتهم المطلوب تنكيسه من أيام وزير الزلازل والبحث العلمي الدكتور عادل عز ربنا يهز عدوينه؛ ولذلك فقد ذهب إلى قسم الشرطة من أجل تحرير محضر يحذر فيه أي مرشح رئاسي من النزول على سطح البيت ويحمله المسؤولية كاملة، لكنه عاد من القسم يحمل في يده نداء يطالب فيه الرئيس مبارك أن يقوم بالنزول بطائرته الهليكوبتر على سطح بيتهم ليحظى البيت بهذا الشرف الرفيع، بل وقام بإراقة دمه على جوانب هذا النداء الذي مضاه بالدم لكي يثبت جدية طلبه، ولم نفهم سر هذا التحول إلا عندما وجدناه ينظر إلى مروحة السقف وينخرط في البكاء ليتضح أن الضابط قام بتعليقه بلبوصا في المروحة لكي يضعه في أجواء ركوب «الهروكبت» ويشرح له أن مصر هي مصر مبارك، وليس من حق فسل مثل صديقنا أن يقرر المكان الذي يمكن أن يذهب إليه مبارك حتى لو كان افتراض أن يأتي الرئيس إلى مكان حقير كهذا افتراضا مستحيلا استحالة فوز فوزي غزال بمنصب رئيس الجمهورية.

بعد الحادثة الأليمة هذه لم يعد صديقنا يبرح سطوح بيتهم كثر اللحية منكوش الشعر طويل الضوافر حاملا في يده كوباية الشاي المولعة ولسانه لا يكف أبدا عن غناء أغنية قديمة جدا لا ندري سر تمسكه بها هي أغنية «دع سمائي فسمائي محرقة».

فأكد على أن استفادة السيسي من الحديث لا تعني تطبيقه حرفيًا على غيره، وإلا لكانت مونيكا بيلوتشي أحق من السيسي بما قاله الشيخ، فليس على ظهر البسيطة أحد يحبه عباد الله مثلها.

الشيخ معذور، أخذته الحماسة فقرر أن يضرب «عيارين محبة» في حضور السيسي، لعله يقدم أداء أكثر إمتاعاً من الذي يقدمه مفتي الديار الغارقة علي جمعة أو الدكتور سعد الدين البحجاني-الهاللي سابقاً- لكنه لم يدرك أن ما قاله يمكن أن يكون سلاحاً في أيدي أعداء دين الله، الذين يمكن أن يثيخوا دعاياتهم الإلحادية في أوساط شبابنا الغر الياق، ليطلبوا منهم أن ينظروا إلى أحوال مصر التي لا تسر عدوا ولا حبيباً، ويسألوا أنفسهم: إذا كان هذا هو حال البلد الذي يحكمه رئيس يحبه الله وملائكته، فكيف سيكون إذن حال البلاد التي يحكمها رئيس يحبه مرءة الشياطين وعنة الأبالة؟

أتعبت مصر الملائكة معها كثيراً خلال العامين الماضيين، فقد أضيف إلى مهامهم التي قرأنا عنها في كتب التراث مهمة عويصة هي دعم الرؤساء المصريين، في أيام حكم سيئ الذكر محمد مرسي ثم استدعاء الملائكة كثيراً لدعمه، وبعد ثلاثين يونيو كان لدى أكثر من ملاك مهم حضور بارز في ميدان رابعة العدوية طبقاً لما ادعاه بعض המתطنين لمنصتها، ولولا أن الملائكة معصومون من غدر الرصاص لكانوا قد انضموا إلى قائمة ضحايا مذبحه رابعة من البشر الذين لم يصدقوا فقط أن محمد مرسي مدعوم من ملائكة السماء، بل صدقوا أيضاً أن جيشهم وشرطتهم لا يمكن أبداً أن تقوم بممارسة القتل الجماعي بصورة لم تعرف لها مصر مثيلاً من قبل.

## عاجل من جبريل؟

«الأهم من الشغل تضبيب الشغل»، تلك حقيقة لم يتذكرها وزير الأوقاف الأسبق الشيخ الأحمدي أبو النور حين استخدم في خطبة عيد الأضحى الرسمية حديث (إذا أحب الله عبداً دعا جبريل فقال إني أحب فلانا فأحبه...) كدليل على أن الله وملائكته يحبون المشير عبد الفتاح السيسي وإلا «ما تحقق له القبول على الأرض وأحبه العالم».

لم يكن أحد سيلوم الشيخ لو قال إن كلامه مجرد استنتاج شخصي؛ لأن السماء توقفت منذ اكتمال الوحي عن إرسال رسائل تعبر عن موقفها مما يحدث على الأرض، وإلا لما كان الله قد أكمل لأمة المسلمين دينها وجعل حسابه معها يوم الحساب، يوم لا ينفع جيش ولا بتون، أو لو كان أكثر صراحة فقال إنه يعرف أن الملائكة لا شأن لها بصراعات حكام الأرض، لكن بما أن الشيخ يوسف القرضاوي اعتبر أن رجب طيب أردوغان مؤيد من الله وجبريل ملائكته، فلماذا لا يستجلب هو أيضاً الملائكة لنصرة السيسي، «جت على السيسي يعني؟»، أو لو كان أكثر إقناعاً ومنطقية فقال إنه متأكد من وجود ملائكة يحبون السيسي أبرزهم عزرائيل، فلا يوجد أحد ساعده في مهمته مؤخراً كما فعل السيسي ورجال دولته، أو لو كان أكثر حيطة

بالطبع، لم تكن العبارات الخرقاء التي قالها الشيخ ستمر مرور الكرام لو كانت قد صدرت منه في حضور محمد مرسى، وكان سينقض عليه حينها مئات الغيورين على الدين، وآلاف المفجوعين على مدينة الدولة، ولم تكن بعدها ستفتح حنفية إلا وانهمرت منها دموع مدراة تبكي على الدين الذي يتاجر به المشايخ، وتنعي الدولة التي هُتكت مدنتها في وضوح نهار العيد، وكانت ساحات وغى التوك شو ستمتلى بالفرسان الذين سينهالون طعنا في مرسى لأنه صمت على كلام الشيخ، ولم يصعد إلى المنبر ليحيى به من رقبته ويحثو في وجهه التراب كما أوصى نبينا بأن نفعل مع المداحين، فما بالك بالهجاجين ممن يلوون أعناق النصوص لإرضاء الحكام، لم يحدث كل هذا ليس لأن دولة السيسي ثقيلة اليد وقرصتها والقبر؛ بل لأن الوطن مستهدف ويمكن للتذكير بالحقيقة المرة أن يجعله «زي سوريا والعراق»؛ لذلك لا ضير إذا تأخرت مدينة الدولة إلى أجل غير مسمى، ولا بأس من التجارة بالدين إذا كانت «على الناشف».

هذا وحتى يتوب الله علينا من المعايير «أم ذمة أستك»، سيبقى سيدنا جبريل حاضرا في خدمة كل رئاسات الجمهورية، إلى أن يصحو المصريون يوما ليجدوا على موبايالاتهم رسالة قصيرة من جبريل عليه السلام تقول لهم: «جللوا عن سمايا».

٢٠١٤

## أشياء مدورة محشية!

خذها مني نصيحة مع أنني لا أحب أخذ النصائح أبدا. إذا سألك أحد عن حال مصر فقل له على الفور: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».. هل تريد تبريرا لذلك؟ وماله؟ هل أتاك حديث الأشياء الصغيرة المدورة المحشية بأشياء غير مفهومة؟ فكفى به تبريرا لأن تردد ماقلته لك وأنت مطمئن.

منذ أسابيع كان (الإخوان المسلمون) لا يكتب لهم أن يأكلوا شيئا في هذا البلد سوى بيادات الأمن المركزي، فإذا بخمسة منهم ما بين غمضة عين وإنعماصتها يأكلون على مائدة رئيس الجمهورية أشياء صغيرة مدورة محشية بما لا يعلمون، طبقا لتصريح النائب الإخواني الحاج محمود مجاهد الذي زار مع أربعة من إخوانه قصر الرئيس الأسبق الماضي في يوم الكادر العظيم.

يا إخواني من قال إن هناك أزمة ثقة بين النظام المبارك والإخوان فقد أخطأ ووجب عليه الكفارة. أما كان لدى الحاج محمود وإخوانه من وافر الثقة بالرئاسة ما جعلهم لا يترددون لوهلة في أكل ما قدم إليهم دون أن يخافوا خطر دس شيء أصفر في حشوه فيصحو ليجدوا أنفسهم على ثرى صحراء القطامية في حال يرثى لها، تماما



كما حدث لأخ لهم تقدم إلى مديرية الأمن للترشيح في انتخابات الشورى فوضوا له ما جعله يقيق فاقدًا أعز ما يملك المتقدم للترشيح، ألا وهو فرصته في الترشيح.

هل هناك ثقة أكبر من تلك التي تجعل الحاج وإخوانه لا يسألون الرئيس أو أحدا من آله أو مساعديه عن ماهية حشو ما يأكلونه ولا حتى من باب الاحتراز الشرعي، إذ لربما كان حشو ما «لغو» من ساليزون مصنوعا من دهن المنخقة أو ظفر الموقوذة أو شعر النطيحة، لكنهم ضحوا واختاروا الثقة في المطبخ الرئاسي ولم يسألوا عن أشياء لو بدت لهم لساءتهم.

يوم أن قرأت الخبر هتفت لنفسي: «مقولة الكلام ده صح؟»، وأزعمت أن كثيرين شاركوني في هتافي؛ ضباط أمن دولة قيل لهم إن الإخوان وحوش لا تستحق سوى السحل، وكتاب أمن دولة كلفوهم أن يقنعوا الناس أن الإخوان يأكلون العيال الصغيرة بعد حشوهم بأشياء غير مفهومة، وقواعد إخوانية أمروها بالدعاء في السجود على النظام، ومُنظِّرين أفتوا بوجود صفقة بين جريدة الدستور والإخوان تجعلها تدافع عنهم في الباطل والعاطل ففوجئوا بالدستور تنتقدهم وبشدة.

بعد أن قال جميع هؤلاء الجملة التي قلتها بحذافيرها أو مصحوبة بحسبنيات أو أصوات سكندرية أو «حواشي زينة» بدءوا بالتأكيد في التحليلات والتنظيرات «تفكير غويط لسنا على قده.. بجهيد لصفقة تمرير للتوريث.. كيد للأمريكان من باب خذوا سعد إبراهيم وسنأخذ الإخوان.. إدراك متأخر كالعادة أن الإخوان سيكونون أكثر ولاء من أندال الوطني، على الأقل سيبيعون الرئيس أميرا للمؤمنين ولن يكون بحاجة لشيوخ الأزهر بصوته الذي يجلب النعاس».

وكلما أطلق أحد تنظيرة وسألني، أو سمع تنظيرة وسألني، قلت وكأني لعبة أطفال صيني علقت بعد دقائق من شرائها: «ما المستول عنها بأعلم من السائل»، لكن ما أعلمه للأمانة هو أن ما حدث يوم المدورات المحشية لو كان نابعا من رغبة صادقة في بدء حوار وطني مع كافة التيارات السياسية لابتهجت له دون تردد، فانا لست من أنصار المعارضة عمال على بطلان، وبداخلي رغبة دنيئة في أن يتخذ الرئيس مبارك قرارا حكيمًا يجد من أجل إنقاذ هذا البلد الذي احتكر حكمه ربع قرن فقط؛ لكي أثبت للبعض أنني تعلمت في المدرسة كيف أكتب كلمة نعم.

على أي حال، أنا مبتهج لكون ما حدث يمكن أن يثبت لقواعد الإخوان المسلمين أن يساريًا نبيلا كالدكتور محمد السيد سعيد يمكن أن يكون أقرب إلى خلق الإسلام في التعامل مع الحاكم والنصح له بجرأة لا تخلو من الأدب، وأن السياسة ليس فيها أحكام مطلقة أو شعارات تجعل تصورك للإسلام هو الحل؛ لأنك يمكن أن تجد نفسك تأكل أشياء مدورة محشية مع من رفعت ضده تلك الشعارات، فتجد نفسك مجبرا على مجاملته بالقول إنه رمز مصر لمجرد أنه أطعمك حاجات مدورة محشية أصبحت بعدها مواجها بأسئلة أقلها إحراجا: لماذا إذن كنت تعارض من تراه رمزا؟ وأوسطها إحراجا: ماذا كنت ستقول عنه إذن لو أطعمك «ستيكا بالشامبينيون ويل دن»؟ أما أكثرها إحراجا فهو: هل يأكل إخوانك المعتقلون شيئا محشيا مدورا غير عصاية الباشا الضابط؟

إسرائيل وحلف الأطلنطي، هذا إن وُجدَ متخلف يوافق على أن يخوض مغامرة الذهاب لمؤتمره الانتخابي أصلا.

المسائل هكذا وسعت وبهوت يا سادة، وأصبح مطلوبا من أجل أنها أن يتخلى النظام الشاكم عن جو التلقح والتسريب؛ لأنه إذا كنا قادرين بعون الله على اختراق حصون أعتى أجهزة المخابرات في مقر دارها، فلماذا لا نعلن فوراً قطع العلاقات مع هذه الدول التي تتأمر على مصير البلاد وتفكر في حرمان الشعب المصري من حكم السيسي له؛ لكي يفكر أي جرد حقير متأمر ألف مرة قبل خوض قرار الترشح في الانتخابات المقبلة التي لا أظن أنه سيكون هناك مبرر لإجرائها من أصله، وإذا كانت ظروف البرد القارس ستمنعنا من خوض الحرب الشاملة مع هذه الدول التي كشفت مصادرنا السيادية مؤامرتها في الوقت المناسب، فإن ذلك لا يجب أن يمنعنا من الإعلان الفوري عن قطع العلاقات الدبلوماسية معها، وقطع أيدي كل من تمتد يده إليها لطلب معونة أو بعثة دراسية أو حتى فيزة سياحة مع تخصيص لجنة رفيعة من المصادر السيادية لدراسة الحالات الخاصة التي تذهب للعلاج والتجارة لكي لا تكون مجالا لتسرب الجواسيس والخونة.

أعلم أن الظروف السياسية قد تتطلب من مصادر سيادية أخرى أن تعلن عن نفي تسريبات المصادر السيادية الثانية، لكن المهم أن الرسالة قد وصلت وبات على الشعب أن يقرأها ويحدد موقفه، هل سيقف إلى جوار حلف شمال الأطلنطي، أم إلى جوار حلف تفويض السيسي الذي يعمل بجهد على إعادة المصريين إلى عصور الكرامة التي كانت الانتخابات فيها مجرد استفتاءات

## ومالها كوريا الشمالية يعني؟

بأسرع مما توقعنا ظهر تفسير معتمد لأحلام الفريق السيسي، لكنه لم يأت من فضيلة شيخ الأزهر، بل جاء من مصادر سيادية قالت لصحيفة (المصري اليوم) إن هناك «مخططا أمريكيا غريباً لإشاعة الفوضى وعرقلة ترشح السيسي للرئاسة»، وجاء في نص الخبر أن الولايات المتحدة شرعت في تنفيذ الخطة بالتنسيق مع ممثلين عن مخابرات ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وإسرائيل وماندوب عن حلف الأطلنطي، بعد اجتماع عُقد بقاعدة عسكرية أمريكية في دارمشتاد بألمانيا، وأن أمريكا بالتعاون مع حلفائها ستستخدم أسماء ٦ شخصيات متعاونة معها للترشح للرئاسة لعرقلة وصول السيسي إلى مقعد الرئاسة.

هكذا إذن، لن يصبح من حق أحد آخر أن يحلم بالرئاسة؛ لأن ترشحك للرئاسة صار طريقك إلى لبس قضية تخابر، إن لم يكن رسمياً فغير الحملات الإعلامية التي تضرب فوق الحزام وتحتة وفين يوجعك، حيث سيصير على كل مرشح يرتكب حماقة الترشح أمام السيسي أن يخصص مؤتمراته الانتخابية للحلفان بالطلاق والنعمة الشريفة إنه ليس عميلاً لمخابرات أمريكا وألمانيا وفرنسا وبريطانيا

لتأكيد الثقة في زعيم ملهم وحيد، وليس للاختيار بين أصحاب برامج وأفكار ومشروعات، وللأسف فإن ما يعرقل سرعة إعادتنا إلى الماضي المجيد هو التساهل مع الخونة والعملاء الذين يدعون أنه تم سرقة إرادة الشعب في ٣٠ يونيو الذي خرج ليطالب بانتخابات رئاسية مبكرة، فإذا بالمسألة تصفص على تحقيق أحلام رئاسية متأخرة.

دعنا من الهزل في موضع العبث، ودعني أقل لك إن كل من أعرفهم من المواطنين لم يعد يرهقهم شيء هذه الأيام بقدر ما يرهقهم ويزعجهم مناخ الغموض وحالة اللوع وشغل التلات تسريبات؛ لأن رغبتهم في أن يرسوا على بر جعلتهم مستعدين لاختيار أي «وضع» يؤدي إلى انقطاع الفرعدة ولو لبعض الوقت؛ حتى يتمكنوا من استعادة إحساسهم بالكون المحيط بهم، ولذلك بدلا من أن تواصل البلاد نزيف خسائرها الاقتصادية، وبدلا من أن يواصل الضباط والمجندون دفع ثمن الصراع على السلطة في العمليات الإرهابية المتلاحقة، وبدلا من أن نستنزف الوقت والصحة والمرارة وما شابهها في مناقشات عبثية من نوعية «طب إنت شايف مين على الساحة؟ يعني إنت شايف حد غيره.. طب هنعمل إيه طاه؟»، لماذا لا نتخذ من كوريا الشمالية نموذجا لنا في الحسم والإنجاز، خاصة أن شعبيها الصديق لديه سابق تجربة مع التفويض؛ ولذلك يمكن لنا أن نستفيد من تجربته، فبدلا من أن نخصص أماكن للتظاهر، علينا أن نخصص ساحات لإعدام كل من يعترض على خارقة الأحلام أو يطلب تفسيرها أو يمارس التنبيط عليها، على أن نترك لمن سيتم إعدامهم حق اختيار طريقة الإعدام المفضلة؛ شريطة

ألا تخالف أحكام الشريعة الإسلامية، طبقا لتفسيرات المحكمة الدستورية العليا وتبريكات حزب النور.

لا أظن أن أحدا يمكن أن يتفلحس ساعتها، فيحذرنا من ردود أفعال المجتمع الدولي، خاصة بعد أن اتضح أن دوله الكبرى تقوم بالتآمر ضدنا «عيانا بيانا»؛ لذلك طالما العملية خسراة، علينا أن نجيب من الآخر ونعقق البلاد بما يحقق مصلحتها، حتى لو حكمت أن نخوض حربا شاملة مع تلك الدول المتآمرة، فنحن والحمد لله لا نشكو أبدا من احتياطي الأغاني الوطنية اللازمة لرفع مستويات الأدرينالين الوطني إلى أقصى مستوياتها، ويمكن لنا في حالة حدوث أي عجز أن نستعين بالمخزون التراثي المتراكم في أرشيف الإذاعة التي طالما انتصرنا داخل مبنائها على أعدائنا بفضل زعمائنا الملهمين الذين يعرفون مصلحة الشعب أكثر منه.

لا أعتقد أيضا أننا يمكن أن نعدم مباركة المثقفين الذين سيواجهون أي تدمير على هذه الإجراءات بالاستشهادات المنهجية بنماذج تاريخية ومعاصرة لدول أدركت أن بتر أورام المعارضة فيها أمر حتمي من أجل الشفاء والبناء، وإذا كانت الدماء التي سقطت حتى الآن ليست كافية لبناء الدولة العصرية المتقدمة الحديثة، فليس عيبا على الإطلاق أن نواصل سفك المزيد من الدماء من أجل بقاء جميع اللوئات والمسؤولين ورؤساء الأحزاب والمذيعين ورؤساء التحرير والخبراء الاستراتيجيين والفقهاء الدستوريين على كراسيهم، خاصة وقد أتاحت لنا الفرصة التي لم تتح لمحمد مرسي في أن ينفذ تهديده الشهير «وفيها إيه لما نصحي بشوية ناس عشان باقي الشعب يعيش؟».

ياسادة: هاتوا من الآخر، وخلوا الشعب يعيش، «وإنشالله يخربها  
مداین عبد الجبار».

٢٠١٣

(للعلم وللتاريخ بعد نشر هذا المقال وصلني رسالة قصيرة من  
المواطن المصري عمرو رزق عضو هيئة التدريس بجامعة هانوفر  
بألمانيا يقول فيها بالنص: «أنا مصري مقيم بألمانيا من ٢١ سنة،  
درست وأقمت لمدة ٨ سنين في دارمشتات، وأحبؤكد لك أن  
القاعدة الأمريكية في دارمشتات مغلقة من سنين ومجلس المدينة  
قرر استخدامها لحل أزمة السكن في المدينة».. لذا لزم التنويه،  
ولا حول ولا قوة إلا بالله).

### اللهم لا افتراض!

تعالوا نفترض مجرد افتراض أن سائحا أجنبيًا زار مصر هذه  
الأيام دون أن تكون لديه فكرة مسبقة عن واقعها السياسي طيلة ربع  
القرن الماضي، وأتيح له الاطلاع على صحفها القومية ومشاهدة  
إعلامها الرسمي من إذاعة وتلفزيون، ثم نسأل أنفسنا عن الصورة  
التي سيكونها هذا السائح عن واقع مصر.

بالتأكيد سيظن هذا السائح أن الرئيس مبارك بدأ حكم مصر منذ  
عدة أشهر وأنه ورث عن سلفه ميراثًا مثقلًا بالظلم والهموم والسلبيات  
والفساد، يعني بدليل ما قاله الدكتور أحمد نظيف رئيس وزرائنا  
لمجدي الجلاد رئيس تحرير (المصري اليوم) عن أن تفسير كل ما  
يحدث في مصر الآن هو أن مصر تشهد حرية سياسية لم تكن متوفرة  
قبل ذلك، بالطبع سينبهر السائح بأن مصر الحمد لله باتت تشهد مثل  
هذه الحرية لكنه سيسأل عن اسم الحاكم الذي كان يحكم مصر منذ  
عامين والذي لم يتح للشعب المصري تلك الحرية التي يتباهى بها  
الدكتور نظيف هذه الأيام، تفكروا كيف سنجيب هذا السائح؟ ملعون  
أبو السائح كيف سنجيب أنفسنا عندما تسألنا عما كنا نسمعه كل يوم  
على مدى ربع القرن الماضي بأننا نعيش أزهى عصور الحريات؟ ثم

ها هو الأمر ينكشف بناء على تصريح رسمي من رئيس وزراء مصر ويتضح أن ما كنا نسمعه لم يكن سوى كذب صراح، فالحرية السياسية الحقيقية اللي هي أزهره واحدة بين الحريات لسه يا دوك مبتدية، طبقا لتصريح الدكتور نظيف، من نحاسب إذن على العمر الذي ضاع في الأوهام والتصریحات؟ ومن سيدفع لنا فرق الحرية الذي كنا نظن أننا نتمتع به كل هذا العمر الذي عدى؟ وهل من حقنا أن نسأل مجرد سؤال عن الخطة التي سنلعب بها هذه المرة والتي تشرنا الصحف القومية بأنها ستجلب لنا الخير والرخاء والهناء، خاصة أننا نلعب بنفس الكابتن، فأين كان العيب إذن في الخطط السابقة؟

بالطبع لا أطمع أن أجد إجابة عن هذه الاسئلة لأننا ولا السائح الذي اعتقد أنه لو ألح كثيرا في سؤاله عن اسم الحاكم الذي سبق الرئيس مبارك في الحكم فستتاح له الفرصة في أن يذوق بعضا من رحيق عصر الحرية الزاهية اللي يا دوك لسه بادي. أما إذا لم يكن غيتنا وقرر ألا يدق كثيرا في أسئلته وواصل قراءة صحفنا القومية فإنه سيحسدنا لا محالة على هذا الخير الذي انهمر فجأة علينا من كل حذب وصوب، مصانع لا حصر لها ولا عدد، وملايين الأمتار من الأراضي يعلن عن استثمارها من قِبل مستثمرين جدد، ومشاريع خدمية ستهال زي الرز على أم رأس ورأس أم كل مواطن مصري، ولا شك أن هذا السائح سيربط بين كل هذا الخير الوفير وبين مجيء حاكم جديد إلى مصر، وسيعتقد أن الحاكم الذي كان يحكمنا في السنوات الماضية كان سبب تأخر التنمية في بلادنا وتعثر خطط الاستثمار وثقب عجلة التنمية، ولا شك أنه سيتوجه لنا ولرئيسنا الجديد بأصدق التهاني وأحر الأمناني.

لو قرأ هذا السائح صحفنا الحكومية وشاهد برامجنا الحوارية

لأدرك أن ثمة عقبة كئودا تقف في طريق تقدمنا وإزدهارنا، اسمها جماعة الإخوان المسلمين المحظورة، ولاعتقد من فرط ما يقرؤه عن هذه الجماعة أنه لاصلاح لنا إلا بالخلاص منها قيادات وأعضاء وفكر ومنهجها، ولربما اقترح علينا الرجل أن نعد إلى التخلص من جميع من ينتسب إليها في محرقة جماعية أو نلقيهم من جديد في غياهب السجون؛ لكي نتخفف من أثقالنا ونستمتع بثمار إصلاحات رئيسنا الجديد الذي لو خلى الإخوان بينه وبين الشعب لصار الراكب يسير من طنطا إلى ديروط لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه.

لو قرأ هذا السائح صحفنا الحكومية لأدرك أنه يعيش بين ظهرائنا جماعة لا يتجاوز عددهم المائتي نفر تحجرت قلوبهم وماتت ضمائرهم؛ يخرجون إلى الشوارع بهدف تعطيل المرور وإرباك حركة السير والاستثمار، ويتسببون بهتافاتهم البذيئة في انهيار البورصة وتدهور التعليم وتلوث المياه وانتشار السرطان والفشل الكلوي، بل ويصل بهم الفجور إلى درجة أنهم يضربون عصي قوات الأمن بأجسامهم وأقدام قوات الأمن ببطونهم ويقحمون أجسام نساءهم الحساسة في أيدي رجال الأمن، ثم يبلغ بهم الفجور أيما مبلغ فيتعرون في أقسام البوليس ويوصلون أطرافهم بالكهرباء ومؤخراتهم بالأوراق والعصي، ثم يأخذون في الصراخ مستجيرين بمنظمات حقوق الإنسان ومستجدين بالصحافة الأجنبية، دون أن يراعوا أننا مجتمع شرقي لا يصح فيه أن يقرأ الأطفال تفاصيل الانتهاكات والتحرشات عيانا بيانا؛ لأن في ذلك خدشا مبينا لحياء المجتمع الذي بات حياؤه يوجعه من كثرة ما ارتكبه هؤلاء المعرقلون لمسيرة التنمية التي تسير مثل وابور عبد الوهاب دون أن يعرف أحد هي «رايحة على فين».



لو قرأ هذا السائح صحفنا الحكومية لشك في قوانا العقلية؛ لأننا نمتلك ثروة قومية ممثلة في ابن رئيس بلادنا الذي لو ذهب إلى دولة متحضرة لخطفته منا خطأ، ولأسلمته قيادها طائعة مختارة لكي يفيء عليها بأفكاره العبقريّة التي يمكن أن تغيّر وجه مصر بدون عمليات جراحية وباستخدام المنظار، لكننا لا نتركه يعمل في صمت كما يوصينا والده - طبقاً لما صرح به للسيد إبراهيم سعدة في مقال آخر له - فأخذنا نغلوّش عليه حتى فقد تركيزه ولم يعد قادراً على أن يعمل لرفعة البلاد وسيادتها، ولا شك أن ذلك السائح سيصرخ فينا كالأسد الهصور بالأنجني على أنفسنا فنحرمها من خير ذلك الشاب المكافح الذي قلما يوجد الزمان بمثله.

لو قرأ هذا السائح صحفنا القوميّة وشاهد نشرات أخبارنا من الواحدة ظهراً وحتى الواحدة صباحاً لحسدنا على حكمة رئيسنا التي يقف العالم كله منصتاً إليها، وعلى نهر الخير الذي يتدفق في بلادنا ولا نهر الذكريات، وعلى التفافنا بكل حب حول مسئولينا وحكامنا دون أن نسلم آذاننا للمغرضين من أهل المعارضة الذين أسلموا قيادهم للشيطان، ولطلب فوراً أن يحصل على الجنسية المصرية لكي يشاركنا في هذا النعيم الوفير، لكن المشكلة أنه وهو متوجه ليلطلب الحصول عليها سيضطر للمشى في مناكب بلادنا وسيشاهد شعبيها المرهق من عناء التنمية، وسيستمع إلى شكواه من التهابات الإصلاح التدريجي، وعندها لن يسأل ذلك السائح سوى سؤال واحد لسائق التاكسي الذي يركبه: «تاخذ كام وتوديني المطار؟».

٢٠٠٦

### «كان عندك إيدز وراح»!

سواء حصل اللواء إبراهيم عبد العاطي صائد الفيروسات على جائزة نوبل في الطب عن اكتشافه مع فريق من القوات المسلحة علاجاً يقضي على فيروسات الإيدز والتهاب الكبد الوبائي وإنفلونزا الخنازير، أو انضم اكتشافه إلى قائمة الضلالات الطبية الممينة التي تجلب الشنار لمن روجها بين المتعلقين بآمال الشفاء، فالمؤكد أن علاقتنا بالكفّة لن تعود كما كانت أبداً، ليس فقط لأننا نستذكر الإيدز كلما اشتهيناها؛ بل لأن الكفّة - كما الكوسة والبطيخ من قبلها - ستصبح سمة عصر ومنهج حياة.

في مشهد سيقف التاريخ فوقه طويلاً، يقف الرجل الأسمر النحيل «الكُبارة» أمام صف من القادة العسكريين قائلاً بشموخ تحسده عليه العجبال الرواسي: «ثقوا أننا هزمنا الإيدز ولم ولن نستورد في يوم من الأيام مصلاً لعلاج يكلف مصر أحد أبنائها إيفن ون بنس، الإيدز يفتت ويصيح زي ما بقول في الأمثلة: باخد الإيدز من المريض باديهوله صباح كفتة يتغذى عليه، باخد المرض واديهوله غداء وهذا قمة الإعجاز العلمي، أشكر السيد المشير الذي اهتم بالبحث، وكان كرباجاً؛ لأنه قال مقولات بترن في أذني لحد دلوقتي: إحنا في الديل

ومش عايزين نفضل في الدليل، إحنا عايزين نقفز وهذه هي القفزة الأولى إن شاء الله. سمعت ما قاله الرجل لأول مرة فبكيت من فرط الضحك حين أدركت أنه لم يعد لي مستقبل في كتابة الكوميديا؛ «هاعلي على الدماغ دي إزاي؟»، لكنني عندما شاهدت المؤتمر الصحفي الكامل الذي عقده القوات المسلحة لإعلان اكتشافها الطبي، بكيت من القهر بعد اصطدامي بحقيقة مخيفة: «الناس دي مصدقة نفسها جدا يا معلم».

عندما يُعلن اكتشاف لعلاج التهاب الكبد الوبائي على شعب هو الأكثر معاناة في العالم من هذا المرض اللعين، كان ينبغي أن يخرج الملايين من أبنائه إلى الشوارع شاكرين مهللين مبتهجين، فلماذا إذن توقف الكثيرون عند موضوع الكفّة دون سواه؟ ولماذا لم يظهر حتى على كثير من هوة التفويض المجاني أنهم يثقون تماما في الاكتشاف العجيب؟ ولماذا خاصموا عاداتهم بالقعدة على الساقطة واللاقط، كما كانوا يفعلون أيام سعى الذكر مرسي، واكتشفوا فجأة خطأ السخرية في بلاد تحترق وأهمية «التوقف والتبين» وضرورة الثبوت والتحصيل؟ الإجابة ببساطة: لأن «الدخلة كانت غلط بأكثر مما يمكن احتماله». قطعاً كان سيختلف استقبال المصريين على اختلاف توجهاتهم لنبا كهذا، لو كان قد تم إعلانه من خلال نخبة من كبار العلماء المصريين في الداخل والخارج، يعلنون للشعب تأكيدهم من معايير البحث العلمي التي حكمت مراحل الاكتشاف الطبي (تخيل مثلاً لو كان العالم المصري محمد غنيم بجالة قدره هو الذي تحدث للشعب عن الاكتشاف، بدلاً من مجموعة مسئولين لا تأمنهم على علاج إصبعك «المدوحس»).

لذلك عندما تقوم كسلطة حاكمة بتقديم «العلاج المعجزة» في سباق حملات التطيل المحمومة التي تتواصل لإيصال المشير السيسي إلى مقعد الرئيس الضرورة، وعندما يتحدث مكتشف العلاج عن خطف المخابرات الحربية له لتنقله من جهات أجنبية «رضت عليه» اثنين مليار دولار وتسمى الجهاز، فليس عليك «دها أن تغضب من الذين تركوا «فيروس سي» ومسكوا في «صباغ الكفّة»، وليس عليك أن تلوم الذين يحملون السيسي مسئولية ما يجري من تداعيات تتوالى يوماً بعد يوم؛ لأن المسألة منذ البداية «م تصويرها كمنجز جرى تحت رعاية تعليماته بأن «نقفز من الذيل»، لكن لأنك لم تقم عادة كل حكام البلاد بعمل «الصح» فقد جاءت قفرتك واسعة، ولكن إلى ما هو أبعد من الذيل بكثير.

منذ عهد المتنبى وما قبله، ومصر تبهر العالم بمضحكاتها البهيكيات، لكن «النكتة دي جديدة» ومتفردة في حزنها ومرارتها وعبتها، الذي لم يكن ينقصه إلا أن يدعو المشير السيسي لمؤتمر «صحفي عالمي يحضره نخبة من علماء العالم، ليقوم هو وعدلي منصور وكل قادة الدولة بحفن أنفسهم بالفيروسات التي يؤكد الاكتشاف علاجها، ثم يتم علاجهم بالجهاز العجيب على الهواء مباشرة؛ لكي يخسأ الخاسئون، ويدركوا أن في مصر رجالاً لا يسمحون بالإساءة إلى سمعة القوات المسلحة، لكن ستصبح لدينا عندها مشكلة جديدة هي أن الملايين ستخرج إلى الميادين مطالبة بتفويض اللواء إبراهيم عبد العاطي كرئيس للجمهورية؛ بوصفه صاحب أهم اختراع طبي في التاريخ الحديث، وربما تعرض الرجل لمحاولة اغتيال بإصبع كفتة مسمومة؛ لإحباط المؤامرة الغربية التي ستمنع السيسي من تولي سدة الحكم وسدّها من بعده.

لم يدع الواقع العبي مجالا للمزيد من العبث، ولذلك دعوني أشهد الله وأشهدكم أنني أتمنى مخلصا صحة اكتشاف القوات المسلحة، فلأن يشفي الله مريضا واحدا خير لي من حُمْر النِّعَم، ولذلك أحاول أن أضع نفسي مكان كل حالم بالشفاء، فألوم كل من يملك يقينا مطلقا بخطا الاكتشاف وخطله، لكنني أيضا ألوم كل من يملك يقينا مطلقا في إعجازه وإنجازه؛ لأن المعرفة العلمية قائمة بطبعها على الشك لا اليقين، وهو ما لم يدركه الجهابذة الذين ربطوا تجربة علمية لا زالت في طور الشك والتجريب بالقوات المسلحة التي يفترض أن تقوم علاقتها بالشعب على الثقة المطلقة، وربما تصرف هؤلاء بهذه الرعونة لأنهم يعلمون أنه حتى لو ثبت أنه ليس للاكتشاف أي قيمة علمية، أو ثبت أن أثره أضال بكثير مما تم الإعلان عنه، فإنه لن تتم محاسبة أحد على تلك الخطيئة، فلا مجال لحق المحاسبة في بلد لم يعد يمتلك المواطن فيه سوى حقوق التصفيق والتلهيل وتفويض الأمر لأولي الأمر في الأجهزة السيادية الشامخة الذين هم أحسن عليه من نفسه، وأعلم بمصلحته منه، ونافعه أكثر من الذين خلفوه.

لذلك، «المسألة المصرية» الآن أعقد من جهاز الكفتة أو كفتة الجهاز، المسألة أن جوهر السياسة في مصر يلخصه مشهد ظيهر بالفيلم الترويجي للاكتشاف المعجزة، يقول فيه اللواء عبد العاطي بشموخه المعتاد لمريض يرقد منكسرا على السرير: «إنت كان عندك إيدز وراح»، فيجيب المريض الذي كاد أن يؤدي التمام: «الحمد لله يا فندم»، وهو بالضبط ذات الأداء الذي تنتظره سلطة الجنرالات من

كل مواطن صالح حين تقول له: «إنت كان عندك إخوان وخفّيت.. إنت كان عندك ببلاوي وراح.. إنت كان عندك ديمقراطية إنت مش قدما.. إنت كان عندك أمل انساه عشان جبنالك أمل على مقاسك»، «لا يملك المواطن حق الاعتراض أو التحفظ أو الشك، ولا يبقى بمقدوره إلا أن يقول مستسلما: «تسلم الأيادي يا فندم».

القاطع أنه نعم يمكن ألا يتجهج الإنسان العاقل الطيب ابن الأصول بقرار تاريخي مثل هذا إذا قمت بتعريضه لما تعرضنا له من إشاعات وإطلاقات النفاق الذري غير المصنوب التي انهمرت علينا من كافة وسائل الإعلام الرسمية المقروءة والمسموعة والمرئية، فعكنت فرحة المصريين بقرار طال انتظاره وتأخر إصداره.

لو دخل علينا من لا يعرف سلو بلادنا ورتآنا ونحن غارقون إلى الأذقان في هذه الزفة البلدي المبتذلة لما صدق أن كل ما نحن هانصون من أجله هو أننا سنستخدم الطاقة النووية في بناء محطات كهربائية سلمية وعهد الله، يعني كبيرها تساعد على كفاءة تشغيل الغسالات ومواتير المياه لتخفيف الضغط على المواسير يوم الجمعة، وهي مهام نبيلة لا يمكن للكاتب الحر أن يقلل من شأنها أبداً، لكنكم لو ترجمتم لهذا الغريب المستغرب مقالات الصحف القومية الهائصة بما حدث، لتخيل أننا انتهينا للتو من أول قبيلة ذرية تساعدنا على فرض توازن الرعب المطلوب على المنطقة، أو أننا قمنا بالتوصل إلى استخدام جديد وغير مسبوق للماء الثقيل في مساعدتنا على الخروج من خبيثنا الثقيلة. بينما كل الحكاية أننا أخيراً قررنا أن نفعل ما فعلته كل شعوب الأرض العاقلة من زمان، واكتشفنا أخيراً أننا لا بد أن نبحث عن بدائل للطاقة التقليدية، وهو أمر لا نكون صادقين ومخلصين لو لم نقيم بمباركته للرئيس مبارك، دون حتى أن نفسد تلك المباركة بأسئلة رزلة عن سر تأخر هذا القرار كل هذه السنين أو عن ارتباطه بمشروع تخصيب التوريت، في كل الأحوال هو مشروع وطني يجب أن نحبيه ونباركه، لكننا في نفس الوقت يجب أن ندعو لاحترام عقلية الناس خصوصاً البسطاء منهم فنصارحهم بحجم ما

### إنها «سلمية»!

سبحان الله، يا ترى يا هلترى، هل هي صدفة بحتة أن تشهد أسواق إندونيسيا طرح أول اليوم غنائى للرئيس الإندونيسي، في نفس اليوم الذي تبدأ فيه في مصر فعاليات المؤتمر العام للحزب الوطني الحاكم؟ فعلاً، للحكام في غنائهم مذاهب، بعض الحكام يفضل أن يغني لشعبه في شرائط كاسيت، وبعضهم يفضل أن يغني على شعبه «لايف».

لا تفهموني خطأ، لست ناقدًا موسيقيًا لأحدث عن الغناء، لا وقت لدينا الآن لهذا الهذر، فقد دخلنا بعون الله وبركات الرئيس مبارك عصر الطاقة النووية السلمية وعهد الله؛ لكي لا يفهمنا أحد خطأ، وإذا ظن مغرض أنني أنوي السخرية فيما يخص النووي وطاقتة، فقد خسى وخاب سعيه فأنا مبتهج حتى الثمالة، فهل يمكن ياناس ياهوه لإنسان عاقل يحب بلده ويخلو من الطحالب والضديات والسواد، ألا يكون مبتهجا بما أعلنه الرئيس مبارك قبل أيام عن إنشاء محطات للطاقة النووية للاستخدامات السلمية وعهد الله؟

كان بودي أن أجيكم بلا طبعاء، لكن للأسف اتضح بالدليل

ننوي فعله من غير تهيب ولا تهيج، فلا نصور لهم أننا جئنا النائية التي تاهت عن دول العالم ولقيناها نحن، ولا نستخدم هذا القرار النبيل لمكاسب سياسية رخيصة تصور للناس زورا وبهتانا أننا نقوم بعمل يجعل أمريكا وإسرائيل يتميزان غيظا وترعد فرائضهما رعبا، ولم يعد يتقصنا إلا أن نقول للبسطاء إن ما أصاب أولمرت من سرطان في البروستات، ما أصابه إلا بعد سماعه قرار أننا سنقوم بعمل محطّة نووية للطاقة الكهربائية السلمية وعهد الله.

الناس لا تأكل من الأونطة إن كنتم لا تعلمون، وإن أخذت لقمتين أونطة تأخذها بمزاجها؛ اتقاء للعين الحمراء وبحكم العشرة الطويلة مع الأونطة، ولذلك الناس لن تخيل عليهم محاولة غسل تاريخ الحزب الوطني المبقع ببقع لم تُزلها مادة «اللايبز» ولن تزيلها الطاقة النووية السلمية وعهد الله، واعتبروا يا أولي الأبواب بما حدث في العام الماضي عندما لم يخل الفيلم النووي على سائر النظار، تذكرون طبعاً عندما امتعنى السيد جمال مبارك خصب الله خطاه صهوة مؤتمر الحزب الوطني وامتشق الميكروفون ليلقي خطبة عصماء أعلن فيها أن مصر ستدخل عصر الطاقة النووية، وأن الحزب الوطني يرفض مشروع الشرق الأوسط الكبير، حتى ظننا أنه يلقي خطابه من الضاحية الجنوبية لبيروت لا من مدينة نصر، حكيت لكم يومها أن صديقاً لي ظن يومها أنه يشاهد خطاباً لأحمدي نجاد، لكن المخرج الذي نقل المباراة قطع أكثر من مرة على صور لصفوت الشريف يستمع إلى الخطاب باهتمام جعل صديقنا يتأكد أنه لا يشاهد مولانا آية الله صفوت لاريجاني، وعندما استمع صديقي بعدها مباشرة إلى كلمة السلمية تكرر في خطاب جمال مبارك تأكد

أنه أكيد في مصر، وأن كل ما لخبط صديقي ولخبطنا جميعاً للمحطات هو ما أعلنه جمال مبارك في خطابه عن رفض حزبه القاطع لمشروع الشرق الأوسط الكبير، تساءلنا يوماً: هل يعلن السيد جمال رفضه له في قاعة المؤتمرات فقط، أم أنه يرفضه أيضاً في قاعات البيت الأبيض المغلقة التي زارها خلسة كما يزور العاشق الولهان مضارب من يهوى؟ يومها توقعنا سائراً أن يقوم الحزب الوطني بطباعة تصريحات وأحاديث وخطب السيد جمال مبارك النارية في كتاب يطلق عليه «الأربعون خطاباً النووية للمجاهد جمال مبارك»، لعل الشعب المصري يقتنع أن الحزب الوطني المبارك «نوي» على شيء غير التورث.

لم يصدر الكتاب طبعاً لكن شكوك النافخين في الزبادي أمثالي في كون المشروع النووي فيلما ليس إلا، تضاعفت عندما انصرم العام سريعاً دون أن تتقدم خطوة نووية واحدة، بل تأخرنا إلى الورا خطوات بعد خلافات مضحكة مبكية بين هيئات الدولة حول الموقع الملائم لإقامة المحطة النووية، وما إذا كانت تلك المحطة ستخرم عجلة الاستثمار السياحي أم ستدفعها، وتحول الحلم النووي النبيل في بعض شهور السنة إلى مسخرة كغيره من الأحلام النبيلة التي ابتذلها محدودو الموهبة الذين ابتليت بهم هذه البلاد المسكينة، حتى ظننا أن حظنا من الطاقة النووية لن يكون إلا على الأيدي الناعمة للفنانين نهال عنبر ونادية الجندي اللتين لعبتا دور خبيرات طاقة نووية في مسلسلات رمضان الأخيرة.

كل هذه الشكوك صارت في ذمة التاريخ الذي هو ذات نفسه في ذمة الله، فقد أعلن رئيسنا المبارك دخولنا عصر الطاقة النووية



السلمية وعهد الله، وصار واجبا أن نلتف كلنا حول هذا المشروع العظيم بجدية، ستسألني: وهنجيب الجدية منين؟ أقول لك: لا يا معلم، في هذا الموضوع بالذات تلزنا الجدية، فالمحطة النووية حتى وإن كتب عليها بالبنط العريض شعار «إنها سلمية.. سلمية»، فهي ليست كوبري لا بد أن ننجزه «في السريع البني» لكي يفتتجه الرئيس بالكثير على شهر أكتوبر، فيما يخص النووي يلزنا أن ننسى ما تعودنا عليه من شغل المهيصة والألأبندة والموالد والزقات وقرب يا جدع وسع للنووي يا باشا، خش يا ريس على النووي وخد صورة مع المفاعل يا جمال بيه، وإلا فسيتهي بنا الأمر لا قدر الله وقد ارتكبنا أخطاء فادحة من بتوع السكة الحديد تحول الحلم النووي إلى كابوس مفوزع يعاني منه العالم أجمع، لينسب لنا حينها أننا كنا أول نور في الدنيا شق ظلام الليل، فسنكون - في حالة الطلقة النووية التي نحذر منها - آخر نور في الدنيا أعاد ترميم ما شقه من ظلام الليل.

٢٠٠٧

### يخرب بيت الثورة يا شيخ

بصراحة، علينا أن نعذر الناس الذين يشعرون بأن الثورة خربت البلاد، أعرف أن مجرد ذكر ذلك سيضايق كل من اشترك في هذه الثورة وآمن بها، لكن لماذا نكتفي بالضيق؟ لماذا لا نجرب ولو مرة أن نستمع إلى تلك الشكاوى وندرسها لعلنا نعرف كيف نتعامل مع أصحابها؟ قررت أن أبدأ بنفسي فأطالع بتمعن صفحات الحوادث وما ينشر بها من جرائم مفرغة غريبة على المجتمع المصري؛ لأكتشف كيف أصبحنا نعيش بسبب الثورة في غابة حقيقية تندلع فيها الجرائم لأهون سبب؛ غابة لا مكان فيها لعلاقات القرابة والصداقة ولا هيبة فيها للدولة ومشاأتها ولا صوت يعلو فوق صوت السلاح الناري، فتفهمتم لماذا يحن الناس إلى أيام الأمن والأمان التي سبقت الثورة، وشعرت بالندم لأنني شاركت في هذه الثورة التي خربت البلاد وأفسدت أخلاق العباد.

سأكتفي باستعراض عناوين بعض من هذه الجرائم التي تسببت فيها الثورة، تاركاً لك التعليق في النهاية:

«طالب عمره ١٧ سنة يفشل في اغتصاب فتاة فيذبحها ويسرقها

- أب وولده يقتلان حدادا أمام أسرته في المحلة - أشعلت النار في حمامها بعد أن راودها عن نفسها - موظف الري يسرق حكما قضائيا ويطلب مقابل له ألف جنيه وقاروصة سجائر - سرقة المحولات الكهربائية على عينك يا تاجر في محافظة المنوفية - ترويح البانجو في نادي المعلمين بالمنوفية - ابن يقتل والده بالإسكندرية لإهانتته أمه أمام عينيه - ميكانيكي يقتل صديقه الأستاذي بسبب ٤٥٠ جنيه بمدينة نصر - فتاة تحمل من والدها سفاحا بالإسماعيلية - الأهالي أسقطوا لص عين شمس وقادوه للقسم - ضبط تركيبات دوائية فاسدة بصيدليات طنطا - بائع خضراوات يهتك عرض طفل عمره ٤ سنوات - سائق توك توك يغتصب طفلا ثم يهشم رأسه - سائق يعتدي على طفل شوارع ويفرقه - شاب يقتل شخصا سب والدته ويلقي بجثته في المسجد - إحالة جثة طفلة أنجبها أخ من أخته سفاحا إلى الطب الشرعي - أهالي الهجانة يغلقون الأوتوستراد احتجاجا على مصرع شخص وزوجته - اختلعا على سعتي شيرت فذبحه في سوق إمبابة - إخلاء سبيل المتهم بمعاشرة شقيقته، ونظر قضية قاتل والدته لشكه في سلوكها - مدير ملهى يعرض للزباين سيديها مخلة لزوجه - ٨ ملثمين يقتلون صاحب كافتريا بالمحلة - إصابة ١٢ في مشاجرة بالأعيرة النارية بالبحيرة، وإصابة اثنين في مشاجرة بين عائلتين بالأسلحة النارية بملوي - ضبط مخزن للأسلحة النارية بكم امبو - جريمة بشعة في البساتين: يقتلان صديقهما بسبب جاكيت - عجوز البساتين يعتدي جنسيا على حفيده - تأجيل قضية قاتل والدته لسوء معاملته لها - تشكيل

عصابي مسلح بالبحيرة يستولي على أراضي أملاك الدولة ويفرض الإتاوات - نقاش يغتال براءة طفلة عمرها ٥ سنوات بكفر الشيخ - عقاقير مخدرة للبيع أمام محكمة شمال الجيزة - تخليص محاضر سرقة الكهرباء بخمسمائة جنيه - ٤ ذئاب يغتصبون سيدة بالسويس - صاحبة مخبز تحرق مكتب تموين بالغربية انتقاما من مديره - عتال بالمنيا يغتصب طفلة - يعرض ابنته على أصدقائه لممارسة الرذيلة بالفلوس في حدائق القبة - مدرس بسوهاج يهتك عرض تلميذة بغرفة الكمبيوتر - قطاع الطرق يسرقون مرتبات عمال الأمن بأكتوبر - مستشار يطلق النار على جاره بالهرم - قهوجي بأرض اللواء يحقق رقما قياسيا في قتل أفراد عائلته - معركة بالسلح في العمرانية والسبب أجرة الحلاق - عاطل يغتصب ابنة شقيقته ويدفنها حية - إحالة مدرس ابتدائي للتحقيق بتهمة التحرش الجنسي مع فتيات الصف السادس الابتدائي - مصرع شخص وإصابة اثنين يطلق ناري بروض الفرج - والدان يجبران بناتهما على ممارسة الدعارة في شقة بالجيزة - موظفو صيانة يسرقون ٦٥ ألف جنيه من ماكينة الصرف الآلي - عاطل يقتل مزارعا بالرصاص في المخانكة - مجهول يعتدي على القضاة عاريا بأسوان - مدرس إعدادي يعتدي على طالبة بمدرسة صفية زغلول للبنات - يقتل ابنة عمه لشكه في سمعتها - عصابات بيع الأعضاء تخطف طفلا بالدقهلية - مجهولون يقتحمون محل موبايالات بالعريش ويشرعون في قتل صاحبه - يقتل مديره لعدم صرف الراتب الإضافي له - هتك عرض طفلة عمرها ٧ سنوات على يد أسرته - تشكيل عصابي يسرق المواطنين

تأملوا فيما قرأتموه واتقوا الله في مصر وارفعوا ألسنتكم عن الثورة ولا ترموا بلاكُم عليها، وتذكروا كيف كانت مصر ماضية إلى خراب شامل نزعَت هذه الثورة فتيله إلى حين، وبدلاً من اللطم واللولولة والعويل، تعالوا ننشغل بتحقيق مطالب هذه الثورة كاملة لكي نُنقذ مصر من الخراب؛ الخراب اللي بيجد والعياذ بالله.

تحيا مصر، بس نديها فرصة.

سبتمبر ٢٠١١

تحت تهديد السلاح بالغبرية - طالب يستخدم بدلة أخيه الضابط للنصب على المواطنين - إصابة ستة أشخاص في مشاجرة بالأسلحة النارية في إمبابة بسبب القمامة - مزارع يقتل والده المسن لرفضه إتمام زواجه - عايره أبوه ببطالته فقام بقتله على الفور - علامات استفهام حول تكرار حوادث الاختطاف بالدقهلية - يقتل شقيقه الأكبر بسبب ٦٠ جنيهاً - وزير الطيران يتدخل لإنهاء مشاجرة بالأيدي والألفاظ النابية بين رئيس مجلس إدارة البنك الأهلي وموظف بجمارك بمطار القاهرة - ٧ شباب يحاولون اغتصاب فتاة بالقنطرة غرب - مجند وشقيقه يذبحان شاباً بالطريق العام - مدرب كاراتيه يتحرش بطفلة تتدرب لديه - ماسح أحذية يقتل زميله بسبب خلاف على مكان الجلوس - سائق ميكروباص وأصدقائه يخطفون راكبة ويعتدون عليها ويصورونها عارية - يقتل أمه بسيخ حديدي إرضاء لزوجته.

إذا كنت قد مللت واتخنت وأصبحت بالغثيان من كل هذه الجرائم البشعة، فدعني أقل لك إن كل هذه الحوادث وقعت خلال ٤٠ يوماً فقط، وإذا كنت ستتهم الثورة بأنها السبب في كل هذا الخراب فدعني أنصحك باللجوء إلى أرشيف صفحة الحوادث والجرائم في موقع اليوم السابع الإخباري لتكتشف بنفسك أن كل هذه الجرائم وقعت في الفترة ما بين ٢٠ فبراير ٢٠٠٩ و٣١ مارس ٢٠٠٩، أي خلال شهر وعشرة أيام فقط من الفترة السعيدة العظيمة المباركة التي لم تكن قد وقعت في مصر فيها ثورة خربت أخلاق الناس وأحدثت الانفلات الأمني المريع الرهيب.

## إيه الحلاوة دي؟

دعنا من الحكايات والروايات وخلينا فيما رأيناه بحدقات أعيننا قبل أيام، دعني أقل لك من الآخر: الدولة التي يدخل حاكمها فيها على نواب شعبه الذين أقسموا على كتاب ربنا إنهم سيصونون مصالح الشعب ويدافعون عنه، ومع ذلك لا يجد الحاكم منهم إلا تصفيقا حادًا وامتنالًا مطلقًا أو في أحسن الأحوال صمتًا مطبقًا هي دولة يجب أن ترتعد فرائصك خوفا على مستقبلها، لن أحدثك عن ذلك النائب الذي هتف قائلا للرئيس: «إيه الحلاوة دي؟»، فهي جملة كاشفة لا تحتاج إلى تعليق أو تحليل، لأنها تلخص بعقريّة عصرا بأكمله تعيش فيه مصر في الحلاوة، فقط سأحدثك عن اليوم الفارق الذي وقف فيه نواب المعارضة من إخوان وفد وتجمع ومستقلين وخلافه كأنهم خشب مسندة، صامتين لا ينسون ببنت شفة دون أن يدعوا أي اعتراض من أي نوع وبأي شكل على ما يجري في البلاد وللعباد، ولعلك لا تحتاج مني إلى أن أذكرك بما يجري في البلاد وللعباد إلا إذا كنت أنت الآخر تعيش في «الحلاوة دي» عن طيب خاطر.

إذا لم تكن كذلك قل لي بالله عليك: ما الذي كان سيحدث لأي نائب من أي اتجاه سياسي لو وقف بكل أدب وتحضر وقال

لرئيس البلاد الحقيقة أو حتى طرفا من الحقيقة، لو ذكره، والذكرى تنفع الرؤساء المؤمنين، بأنه سمع منه قبل ذلك كل ما قاله عن كون الفقراء ومحدودي الدخل في عقله وقلبه، لو قال له إنه سيقبلي به في عدم الخشية إلا من الله وسيقول له كل الذي يوجع الناس ويقرف عيشتهم، لو فعلها أحد من نواب الشعب فهل كان سيصدر قرار بإعدامه أو سحله أو سجنه؟ أنا واثق أن ذلك لم يكن ليحدث أبدا، طيب لماذا إذن كتم الجميع الشهادة في لحظة فارقة كالتي نعيشها؟ ارجع إلى حكاية من أتق وتأملها وستستنتج ببساطة أن سيستم الخوف يجعلك ترتعد خوفا وأنت تعتقد جازما أن الشجاعة لا تنقصك أبدا، يجعلك خائفا حتى لو لم يبادر أحد لإخافتك، وهو «سايب إيد» سيعمل «السيستم» على جعل نفسك الأمانة بالتبرير تقول لك إنه لم يكن يصح أبدا أن تقف لتخرق حاجز الصمت وتقول ما ينبغي أن يقال، ستحدثك عن الأعراف والأصول والكياسة والسياسة وأنت ستستمع وتعي ثم ستنتقل للكل حديثا حرفيًا، والكل يدورهم سيقولون لأنفسهم: طيب إذا كان نواب الشعب قد صمتوا وعدوها فلماذا يلومنا اللامثون، ولماذا لا نصمت نحن ونعديها؟ على أمل إن ربنا يعديها؟ وهكذا يسود الصمت المطبق جنبات الوطن ولا يعلو صوت فوق صوت التصفيق للحلاوة دي.

عندما كنا صغارا علمونا أنه يتوجب ويتعين ولزما وحتما «ما تخافش إلا من اللي خلقك»، وعندما كبرنا علمونا أنه يتوجب ويتعين ولزما وحتما «تسايس أمورك وما توديش نفسك في داهية»، والقلائل منا الذين رأوا أن هناك تناقضا بين المنطقيين توجب وتعين ولزما وحتما عليهم أن يكملوا الحياة مع أنفسهم خالص حتى يأتي

عليهم يوم فيه يسقطون من الإعياء ويقتنعون أن هناك خيارين لا ثالث لهما في هذا الوطن؛ أن تصفق بحرارة أو تمتنع عن التصفيق، أن تصمت وتعديها أو تهتف بحياة الحلاوة دي.

تعس الصامتون والمصفقون، كلهم سواء، الهائف بحياة الحلاوة والممتعض من سيرتها سيان، البلاد المنهكة لاحتياج الاثنين، تحتاج إلى من يقول الحق، لكن الحق مر، لا علاقة له بالحلاوة، الحق يريد أناسا يؤمنون بكلام قيل من زمان، «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها»، كلام قلناه وسمعناه وما وعيناه ولا عملنا به وكلما جاءت فرصة للعمل به أضعناها، فلا تسألوا إذن أين ذهب الخير طالما أن أحدا لم يقلها حيث ينبغي أن تقال، لا تلوّموا من لم يسمعوها لأنكم لم تقولوها حيث ينبغي أن تقال.

تذكروا هذا اليوم جيذا؛ يوما غرق فيه نواب الشعب في تصفيق حاد تخلله صمت مكتوم في بعض الأجزاء، بينما البلاد كلها كانت تواصل الغرق في الحلاوة، غرقا عمره ربع قرن، دون أن يمد أحد لها يده؛ يوما لم يقف فيه أحد، حتى من الذين يدعون معرفة ربنا وتمثله في كل حركة وسكنة، أو أولئك الذين يموتون في ديدايب الشعب ويتغنون دائما بقدرتهم على بذل الغالي والنفس من أجله، كلهم دون استثناء يا صمتوا يا صمتوا، كلهم لم يمتلكوا شجاعة الوقوف ليقولوا كلمة تنفهم يوم الحساب، كلمة يعلنون فيها من أجل هذا الشعب أننا لا بد أن نكتفي بهذا القدر من الحلاوة؛ لكي لا نموت بالسكري.

لك الله يا مصر. لم يعد لك غير الله.. ونعم بالله.

نوفمبر ٢٠٠٧

## جوتوهيل!

فتحت التلفزيون لأعرف تداعيات ما يجري في مدينة المنصورة من أحداث لا تسر الخاطر المكسور، فوجدت «لاجل حظي العيش» على قناة الحياة - الحمرا ولا مؤاخذه - خبيرا إستراتيجيا بدرجة لواء أركان حرب سابق يحرك رأسه بعصبية في كل الاتجاهات وهو يزعم قائلا: «إحنا مصر دولة قوية، كنا سلة الغلال لألف عام وهنهمز الإخوان زي ما هزمنّا التتار وأحب أقول للدول الغربية: وي آر سترونج أند وي دونت في يو.. أند وي وورن يو وي آر ريدي فور ديس.. أند وي كان ديفيت يو»، ثم قرر على حين غرة التوقف عن الكلام بالإنجليزية ليضيف: «وأقول لبعض الشباب بطولوا مظاهرات فورا»، وللأسف انتهت «نمرة» سيادته قبل أن اتصل بالبرنامج لأفهم منه، هل يعتقد حقاً أن الدول الغربية كلفت مندوبين بالفرجة عليه في برنامج قناة الحياة ولذلك قرر أن يترجم لها كلامه بالإنجليزية، مع أنه كان يمكن أن يتركها تتلظى من الحيرة وهي تحاول فهمه؛ حتى تفاجأ بمباغتتنا لها والانتصار عليها كما انتصروا على التتار.

أفقلت التلفزيون وذهبت إلى الإنترنت بحثا عن أخبار تبل الريق فوجدت خبرا يقول إن محافظ الدقهلية خلال اتصال بأحد البرامج



زف بشرى سارة للمواطنين بأن عملية التفجير تم تصويرها كاملة من كاميرات مراقبة بنك مجاور للمديرية، لم أقرأ في الخبر: هل سأل مديع البرنامج: ولماذا لا تمتلك مديرية الأمن كاميرات مراقبة مثلما يفترض بأي مؤسسة أمنية، كما بات يحدث حتى في البلاد الريع الحكم التي تؤمن كل المناطق الحيوية بشبكات مراقبة، كان يمكن تمويل تكلفتها باقتطاع نسبة من المليارات التي صرفت على مرتبات مدراء الأمن وأدوات التعذيب والتنصت وعربات مكافحة الشغب المصفحة التي لم تفعل شيئا سوى زيادة أسباب الشغب؟

تذكرت عندها موقفا حدث عندما سافرت إلى العاصمة الأمريكية واشنطن ومررت خلال تجوالي في شوارعها إلى جوار المبنى الرئيسي للـ«إف بي آي» أكبر الأجهزة الأمنية في العالم والذي يقع في قلب العاصمة الأمريكية، فاستغربت عدم إحاطة المكان بأي كائن أو لجان أو نقاط تفتيش أو حتى حواجز حديدية قبيحة الشكل، قلت لصديقي المقيم في المدينة: «بالتأكيد هذا المبنى مهجور ونظر على الفاضي وإلا لما تركوه هكذا دون حراسة»، فرد ساخرا: «ستكتشف أن المبنى ليس مهجورا وأنه محروس أكثر من اللازم إذا قمت مثلا برمي شطرتك باتجاه المبنى، لكن افعل ذلك عندما أبعد عنك قليلا»، لم يكذب كلامه حتى وقع ما أكد صحة كلامه دون أن أقوم برمي الشنطة، فقد تعطل أتوبيس نقل عام ووقف إلى جوار المبنى بعيدا عن محطته المعتادة التي تقع على بعد شارعين، وفي لمح البصر خرجت من داخل المبنى باتجاه الأتوبيس سيارة مصفحة حولها أكثر من ضابط بصحبة كلاب بوليسية، ليصرخ السائق في القادمين: «الدي مشكلة في المحرك».

الغريب أنه في تلك اللحظات العصبية لم يقترب أحد منا نحن ولا من المارة الآخرين الذين كانوا يشكلون تمثيلا لعدد من شعوب الأرض، كما هو الحال في أي مدينة أمريكية كبيرة، وخلال لحظات خرجت من المبنى شاحنة قامت في لحظات بقطر الأتوبيس ودون ضجيج مصحوب بعبارات «عجلة ورايا أسطى.. اكسر يمين شوية.. بتثيل إيه يخرب بيت أمك»، لتعود المنطقة المحيطة بالمكان إلى هدوئها الخادع الذي يسر الناظرين.

كل من سافر إلى أي مدينة من مدن الدول التي تحترم مواطنيها يدرك أن تلك الدول أدركت أن نشر الشعور بالأمن يرتبط بغياب مظاهر التواجد الأمني المكثفة التي تثير الفزع؛ لكي تكون موجودة فقط في الأيام التي توجد بها مثلا احتفالات عامة تزدحم فيها الشوارع، عندها يكون الوجود المكثف للشرطة أمرا مهما لقطع الطريق على من يفكر في استغلال الزحام في عمل يخل بالأمن.

وبالطبع عندما تقول كلاما كهذا سيظهر لك من يستسهل الحديث عن الفرق بين أخلاقياتنا وأخلاقيات الشعوب المتقدمة و«إحنا فين وهُم فين، إنت هتقارنا بيهم»، والمؤكد أنك في الغالب خلال مناقشتك لهذا الشخص الذي يمثل مدرسة تفكير شائعة في بلادنا، ستكتشف أنه يحمل أفكارا عنصرية بحق الشعوب العربية والإفريقية والآسيوية، وأنه في نفس الوقت الذي يعتقد أننا محكومون بلعنة أزلية تجعلنا متخلفين، يحمل في نفس الدماغ أفكارا عنصرية تمجد في المصريين وتمنعهم تفوقا عرقيا على كل شعوب الأرض.

للأسف فإن مثل هذه الضلالات الجماعية التي تغذيها وسائل الإعلام هي التي تجعلنا ننسى أن الشعوب المتقدمة لم تولد متقدمة، بل كانت تعاني من نفس أمراضنا ومشاكلنا، بل إن مشكلة انفلات الأمن مثلا ظلت موجودة في أهم العواصم العالمية وحتى وقت قريب بشكل مزعج لم نشهده في أي وقت من الأوقات، لكن مسئولية تلك العواصم مثل مسئولية دولهم يصلون إلى مقاعدهم بالانتخاب، ولا يقيهم عليها رضا الأجهزة السيادية بل رضا رجل الشارع وحده، ولذلك فهم مجبرون خوفا من غضب المواطن على معالجة الأخطاء بشكل علمي، كان يمكن أن نستفيد منه لو كنا راغبين في إصلاح أوضاعنا الأمنية، لكننا نفضل أن نستورد من أمريكا أسلحة قمع المتظاهرين وأدوات التعذيب بدلا من أن نستفيد مثلا من تجربة عمدة نيويورك الشهير «رودلف جوليان» في القضاء على الجريمة المنظمة أو تأمين المناطق المزدهمة بشبكات مراقبة إلكترونية، أو نفكر في فعل أي شيء لرفع مستوى خيالات المائة من الأمان والجند الغلبة الذين ينشرون شعورا كاذبا بالتواجد الأمني في الشارع لا نفكر في تصحيحه برغم كل كارثة و«اللي أنقح منها».

قادتني خطاي اللجنة أخيرا إلى موقع تواصل اجتماعي نشرت فيه صديقة إعلامية خبرا يقول: إن نادي أعضاء هيئة تدريس جامعة الأزهر اقترح تهجير أهالي سيناء الشرفاء لكي يستطيع الجيش ضرب الإرهاب، وهو اقتراح وجدته الصديقة جديرا بالتطبيق الفوري «عشان زهقنا بقى من خنقة الإرهاب»، فوجدت نفسي أصرخ:

«دونت دو إني ثينج تو ديفيت أس.. وي ويل فينيس أور سيلفز ويدز أور سيلفز.. سانكيو.. فك يو.. جو تو هيل»، ولكي لا تفهم قلبي المفاجئة للإنجليزية خطأ، فأنا يا سيدي لا أخاطبك، بل كنت أقتدي بسيادة اللواء أركان حرب، وأخاطب الدول الغربية التي سنهزمها مثلما هزمنا التتار والإخوان.

ما يفعلونه مع الغريب عندما يسمعون أنه نوى يتأهل ويخش دنيا، فيهتفون من قلوبهم: «ربنا يسعده ويتم له خير».

ليست لديّ أي رغبة في الموالسة لاسمح الله، لكنني سعيد للغاية بخطوبة السيد جمال مبارك لأنها في رأيي ستتيح له فرصاً أكبر للاقتراب من أبناء الشعب وفهم كيف يعيشون، لعله يفيق من الأوهام التي يزينها له خبراء لجنة السياسات ومواسو الصحف القومية بقيادة سيد اللحاس القاطن في شارع القصر العيني، يمكن الآن لجمال مبارك أن يفهم لماذا شاخ الشباب المصري قبل الألوان، ولماذا لم يعد أحد قادراً على أن يكمل نص دينه، ولماذا أصبح الاغتصاب أسهل وأيسر بكثير من الزواج.

لا أريد أن أدخل في أي تفاصيل شخصية ولو حتى بدعوى أن السيد جمال مبارك فرض نفسه كشخصية عامة بمحض اختياره، وأصبح من حق الشعب أن يعرف كل شيء عنه، خاصة أنه يعد بقوة ليحكم هذا الشعب، فانا لست من أنصار الدخول في الحياة الشخصية للفنانين، فما بالك بالدخول في الحياة الشخصية لمن لا يستحب أن تدخل في حياته العامة فضلاً عن الخاصة، لكن على أي حال أريد أن أنتهز أجواء البهجة العارمة التي تعيشها مصر بعد خطوبة السيد جمال والتي سيكتب المواسون غدا أنها شجعت ملايين الشباب والفتيات على عدم القعود على رصيف الحياة وهجر العنوسة التي اتخذوها منهجاً لهم، والدخول في معترك الحياة، كما فعل السيد جمال مبارك؛ لذلك ربما كان من المفيد أن نشيع وسط هذه الأجواء المبهجة عدداً من الأسئلة التي نسألها عادة لأي صديق

## هل سيتنزل جمال مبارك

### إلى الرويحي ودرب البرابرة؟

لا أدري ماهو سر ردود الفعل العدوانية التي انتابت قطاعات واسعة من الشعب المصري بعد إعلان نبأ خطوبة السيد جمال مبارك إلى الأنسة خديجة الجمال، بارك الله لهما وبارك عليهما وجمع بينهما في خير.

كنت أظن أن الناس سيفرحون لأن خطوبة السيد جمال ستجعله يخف عنهم قليلاً فينشغل بالخروجات والمكالمات التلفونية الطويلة وشراء الدبايب والأرايب وزيارة بيت عمه، وما إلى ذلك من طقوس الخطوبة المعتادة لدى المصريين، كنت سأظن أن الناس ستبهج لأن السيد جمال مبارك سيكمل نصف دينه بعد أن طلعت لجنة سياساته كل عين اللي خلفونا، كنت أظن أن الناس لديهم القدرة على التفريق بين الموقف السياسي الذي يجعلهم يُكْتَوْنَ للسيد جمال مبارك - مش مهم يُكْتَوْنَ إيه.. طالما كانوا يُكْتَوْنَ وخلاص - وبين الموقف الإنساني الذي يفرض عليهم أن يفعلوا معه وهو القريب

لنا يتخذ قرار الخطوبة الخطير: بذمتك ألسنا نسأل كل من يخطب ممن نعرف: «خذت شقة؟ وضيتها؟ نويت على إمتي؟ هتبدأ تجهز إمتي؟»، فكيف لا نسأل أسئلة مثل هذه لمن يتم إعداده لكي يحكمنا في يوم من الأيام؟ هيا بنا إذن نسأل تلك الأسئلة مستعيزين بالله من الشيطان الرجيم الذي قد يلقي في قلوبنا الحسد والبغضاء للذين لا يلقان بفرحة كالتى نعيشها.

ربما كان السؤال الأول الذي يتبادر إلى الذهن هو: أين سيسكن السيد جمال مبارك بإذن الله بعد زواجه؟ لن أكون مواطنا قليل الأدب فأقول إنه سيؤجر قصر المانسترلي لإيجارا جديدا، فأنا متأكد أن لدى السيد جمال شقة فعلا، ولن أسأل: كيف حصل عليها؟ فأنا أعلم أنه عمل طويلا بالخارج ولديه تحويشة عمر نالها من كده وعرقه، وبالتأكيد اشترى بها شقة لن تقل بأي حال من الأحوال عن «ثلاث أود بمنافعهم وعفشتين مية وأودة غسيل»، ولن يغلب السيد جمال مبارك في تجهيز شقته، خصوصا وحوله عدد وفير من خبراء الدهان والتلميع والنقاشة السياسية والسباكة الفكرية وكلهم مستعدون للخدمة دون أدنى مقابل، لكن تظل المشكلة الحقيقية التي يواجهها هي في تجهيز الشقة، خاصة وقد ارتفعت أسعار العفش والأجهزة الكهربائية ومستلزمات العروسين ووصلت إلى أرقام فلكية لا أعتقد أن مرتبه من أمانة لجنة السياسات يمكن أن يغطيها، بالمناسبة ألا صحيح، كم مرتب السيد جمال مبارك في لجنة السياسات، وهل هو الآخر سر خطير لا يمكن لنا أن نعرفه، أم أن من الحكمة أن نعرفه لكي يتخذ شباب مصر قدوة لهم ويعرفوا أنه يعيش في ظروف قريبة من ظروفهم؟

عموما، ليس هذا موضوعنا الآن، فالأهم بالنسبة لدينا أن نتشارك مع السيد جمال مبارك في خبرتنا كشباب في الخطوبة والتجهيز للزواج، وإن كنا لا نعلم حتى الآن هل هو قاري فاتحة فقط أم ملبس دبل؛ فكل ما نشر هو خبر مبهم عن خطوبته، لكننا سنفترض أنه يجيز للزواج من الآن، وسنحاول أن نعيته على ذلك بما لا يرهق مرتبه الضئيل الذي يتقاضاه من لجنة السياسات، مقدرين له أنه يعمل من أجل رفعة الوطن دون أن يطلب جزاء ولا «شاكير»، كما أننا لا نريده أن يعتمد في التجهيز على علاقاته وصدقاته برجال الأعمال الذين يملكون كل شيء في مصر؛ لأن ذلك سيضيع من يده هذه الفرصة الذهبية التي تجعله يقترب من الشعب ويثبت له أنه «واحد منه» ولم يهبط عليه بالباراشوت، كما يقول المرجفون في الأرض.

يعني تخيلوا لو قرر السيد جمال مبارك ألا يشتري الأدوات الصحية وشغل السباكة من سيراميك كليوباترا أو محلات السلاب، حيث يمكن أن يوفر له أبو العينين والسلاب خصومات هائلة، بل قرر أن ينزل إلى الرويعي ليشاهده الناس وهو يفاضل على طقم خلاط مستورد، أو يخطف رجله إلى الفجالة ليفاضل على سيراميك فرز تاني. ماذا لو قرر ألا يشتري نجفا إسبانياً أو إيطالياً لشفقة وقرر كأبي عريس في مقتبل العمر وميوعة الشباب أن ينزل إلى درب البرابرة، حيث لا يوجد برابرة، بل توجد مجموعة من أجمل أنواع النجف المقلد ببراعة لا تجعلك تفرقه عن المستورد في شيء، ولربما طلع له فوق بيعة النجف بشمعدان مط يضعه على السفرة أو لمبادير شياكة يستخدمه في أنصاص الليالي وهو يرسم سياسات مصر في الفترة القادمة.

طيب، ماذا لو رفض السيد جمال مبارك أن يشتري غرفة النوم أو السفارة أو الصالون من الخارج، كما يفعل الأغنياء في بلادنا عادة، وقرر أن يخطف رجله إلى دمياط لكي يشتري عشقه من «نحن البربري» أو غيره من تجار الأثاث المتميز في دمياط؟ بالمناسبة إذا وجد أن أسعار هؤلاء غالية، يمكن أن أدله على قرية خارج دمياط بقليل بها مجموعة ورش تباع لأصحاب المعارض، وسيوفر ثلث السعر تقريبا وكل ما عليه أن يختار من التكنولوجيا الأنيقة ما يعين له ويحدد موعد التسليم ويمكن للفصل أن يحقق له أسعارا لا يتخيلها، أما إذا أراد أن ينزل إلى مستوى الغالبية العظمى من الشعب فهل يمكن أن نراه يوما ما في المناصرة يفاصل على «سفرة أرو» غير مدهونة لكي يضمن تنزيلا مذهلا في سعرها، إذ لربما ساعدناه حينها في أستورجي معتبر وخدمناه في قماش تنجيد كراسي السفارة؟ هل يمكن أن ينزل إلى وكالة البلح ليشتري قماش الأنتريه على ذوقه بدلا من أن يدبسه نجار الأنتريهات في قماش زيتي لا يليق ذوقه البلدي به ويعروسته كخريجين للجامعة الأمريكية التي لا تحب الزيتي؟ هل سينزل مع عروسته إلى الموسكي ليأخذ فكرة عن أسعار طقم الصيني وطقم الجيلي وطقم الشاي والفناجين؟ وهل سيزوران عمر أنندي والصالون الأخضر - وهو بالمناسبة الشيء الوحيد الذي ظل أخضر في مصر - لكي يأخذ فكرة عن الملايات والكوفرات والفرط وأغطية المخدات ويحصل مع ما سيشتريانه على روب قطن هدية للعروسين؟ هل سيذهب إلى محل (ستاير النسيان) الكائن أسفل كوبري فيصل لكي يحصل على خصم مذهب في الستائر مع عمل الكرائيش على حساب المحل؟ هل سينزل إلى شارع عبد العزيز لكي يبحث عن أجهزة محروقة تفرق

مئات الجنيهات عما يباع في محلات المهندسين ومدينة نصر، وهل يمكن أن يسمح لنا بأن «نوقع» له من سوق الإمام الشافعي حبة براويز وتحف ولوحات مقلدة يتورها في أرجاء الشقة.

سيدخل جمال مبارك الفرحة على قلوب المصريين لو فعل كل ذلك؛ لأنه سيثبت لهم أن ما يقوله في حواراته عن كونه واحدا منهم هو أمر حقيقي وليس شغل تصريحات، سيثبت لهم أنه عصامي كأيهم الذي لم يولد وفي فمه ملعقة من ذهب، والذي يحب بالتأكيد لابنه أن يعاني في تجهيز نفسه تماما كما فعل هو، صحيح أن الزمن غير الزمن والأسعار غير الأسعار، لكنها فرصة سانحة لكي يتعرف الأب والابن معا على طبيعة الأسعار في عصر الرخاء الاقتصادي الذي نعيشه، ويأخذ فكرة كيف يكمل الشعب المصري نصف دينه، فالخوف كل الخوف أن يكون أحد الموالسين قد أعطاهما فكرة مضللة مفادها أن الشعب المصري أصبح من فرط تحسن أحواله الاقتصادية يذهب لتجهيز أبنائه من دبي أو إيطاليا، سترك هذه الخطوات المعارضة وستثبت أنها كاذبة وحقودة وعائشة في الوهم، وستثبت أن هناك فكرا جديدا بالفعل في مصر، وستعطي دفعة قوية للصناعة المصرية، لكن مشكلتها الوحيدة أنها تتطلب لإتمامها مجهودا كبيرا بين أصحاب المحلات والعاملين والمترددين على مناطق الرويعي والفجالة ودرب البرابرة والمناصرة ووكالة البلح والموسكي وأول فيصل وشارع عبد العزيز، فبالتأكيد يحتاج كل هؤلاء إلى وقت طويل قبل تجنيدهم في أمن الدولة.



عن حل عبقرى لجأ إليه شعب مقهور للتخلص من استبداد حاكمه؛ حيث تجمع الشعب كله في الطرقات في يوم واحد وأخذ كل فرد يزوم غاضبا، ومن أصوات الزوم المتراكمة المتحدة تجمع صوت هادر أجبر نظام الحكم على السقوط. لا يا سيدي، ليس هذا هو الحل الذي أدعو إليه الآن، صبرك بالله، أعرف أن بعد كل ما حدث من هتافات في الثورة يمر حلها المختلفة، ومع الضجيج الذي يحيط بكل مدنا ومع الحر والخنقة، لن يكون لأحد نفس أن يخرج منه صوت زوم أصلا، وبالتالي لن تكون هذه الفكرة قابلة للتطبيق أصلا.

لماذا، إذن، تذكرت قصة المخزنجي؟ تذكرتها لأنني أحتاج منها فقط فكرة التجمع، أما الزوم فأدعو لاستبداله بسلاح آخر هو سلاح الغازات التي تخرج من جسد الإنسان، والتي لا أدري لماذا يجد البعض حرجا في تداول التسميات التي تطلق عليها في كتب التراث وخصوصا كتب الفقه، لعلك سمعت عن قول الشاعر العربي في وصف نفاق الناس لأحد أصحاب السلطة «وعدَّ الناس ضرطته غناء.. وقالوا إن فساه قد فاح طيب»، لن أغضبك طبعاً بذكر التسميات الشعبية التي تطلق عليها لأن هذا قد يؤذي أخلاقك البورجوازية، التي تصور أن عدم تسمية الأمور بمسمياتها يمكن أن تخفيها من الوجود، ولذلك لن أنشغل بالمسميات، بل سأبقى مع جوهر الفكرة الذي يدعو لإنشاء حركة شعبية تقوم باستخدام الغازات الخارجة من الجسد في مواجهة السلطة الإخوانية المستبدة، فيتم إعلان حالة الفساد العام في مواجهة النفير العام الذي يطلقه الإخوان، تخيل مليون مواطن على الأقل وهم يقفون في مواجهة مكتب الإرشاد باعتباره أسس البلاء في هذه البلاد، حاملين علما أخضر بلون ورق الكرب وعلية قطعنا

## الغاز سلاحا للردع!

«لازم نفكر بره الصندوق يا جماعة، ما فيش حل لمشاكلنا غير التفكير بره الصندوق».

يا سلام، من زمان وأنا أحلم بفرصة تسنح أستخدم فيها هذه العبارة كافتتاحية لشيء ما أكتبه؛ لأنني لاحظت أنها تجذب انتباهي كقارئ كلما وجدتها في مطلع مقال ما، وكمشاهد كلما وجدت أحدا يستخدمها في حوار تلفزيوني؛ لذلك قررت أن أستخدمها لكي ألفت انتباهك إذا كنت من الذين يحبون الجمل الطنانة زي حالاتي. أما وقد لفتت الجملة انتباهك وتورطت في القراءة لحد هنا، فدعني أطمئنك أنني لم أجذب انتباهك عبثاً دون أن يكون لدي حل من خارج الصندوق، فقد ألهمني الله ووجدت تفكيراً غير تقليدي من خارج الصندوق يليق على الجملة الافتتاحية يمكن أن نواجه به غشومية جماعة الإخوان المسلمين بعد أن زهق الناس من المظاهرات والمسيرات والوقفات الاحتجاجية، وبدون أن نخرج على السلمية، التي سأظل أومن بها مع أنها نفسها كفرت بنفسها.

كان لعننا الأديب الكبير محمد المخزنجي قصة جميلة نشرت في صحيفة (الدستور) عام ٢٠٠٦ كان عنوانها (زوموا)، وكانت تحكي

محشي كرنب متقاطعتان كأنهما سيفان يحيطهما عدد من البيضات المسلوقات كتب على كل منها شعار الحركة «إذيتها»، يقف هؤلاء جميعا في انتظار إشارة البدء وهم مسلحون بحب الوطن وبالغازات المتراكمة في بطونهم على مدى أيام، ثم يستديرون في لحظة واحدة ليواجهوا المكتب وقد وضع كل منهم كمامته على أنفه ثم يطلق كل منهم غازه الحبيس منفلتا «كأنه سحبة قوس في أوتار كمان»؛ شريطة أن يراعى في ترتيب الصفوف وضع أصحاب الغازات الأخطر فتكا في المقدمة، بالمناسبة لي صديق لو أطلق غازاته على شعب لأحرقه، ومثل هذا لو لم يتم وضعه في مقدمة الصفوف يمكن أن يطلق غازات صديقة توقع خسائر غير مرغوب بها.

أعترف أنني ترددت كثيرا في إعلان هذه الفكرة رغم ما وجدته من تشجيع عندما عرضتها على بعض الأصدقاء في ساحة الفيس بوك، ولم يشجعي على «إطلاقها» بين يديك سوى ما حدث لي قبل أيام وأنا أحيي ذكرى عمنا الساخر الأعظم محمود السعدني براءة كتبه كما تعودت، فوجدته في كتابه البديع (حمار من الشرق) يشرح للخواجاية الباريسية التي تحاوره كيف أن حال أمتنا تدهور إلى حد جعل فقهاء يوم ما ينشغلون بمناقشة قضية فكرية مثل: «هل ينقض وضوء من يحمل على كتفه قرية فساء ويدور بها بين الناس في الأسواق؟»، وعندها قالت له الخواجاية: «ولكن ما هو الفساء، فأنا لم أسمع به بعد؟»، فرد عليها السعدني: «الفساء يا حلوة هي مادة كيميائية بفعل تفاعل البصل مع الثوم مع الفول مع الكرات مع السمك البلطي مع الشاي الأسود المخروط، ومن خلال هذا التفاعل تحدث قذائف أقوى مفعولا من القنبلة الذرية، وتشيع روائح

في الجو محرمة دوليًا شأنها شأن الغازات السامة وقنابل النابالم». قالت: آه، أتقصد غازات؟ قلت: هي غازات بالضبط، ولكن غازاتنا تختلف عن غازاتكم، غازاتكم هي نتيجة لأكل الشيكولاتة والجاتوه، ولكن غازاتنا أعوذ بالله. يقال إن بهانة الحجاوي جدة العبقري زكريا الحجاوي وزوجها برعي السعدني جد العبد لله، استطاعا وحدهما صد الغزو الصليبي على دمياط في العصر الوسيط. قالت: إذن فأنت من أسرة محاربة ومن طبقة عسكرية لها تاريخ. قلت: الحقيقة أن جدي برعي لم يكن عسكريا ولكنه كان فلاحا، وجدة الحجاوي لم تكن مجاهدة ولكنها كانت تصطاد السمك من بحيرة المنزل، وذات صباح كانا يترضان على الشاطئ عندما لمحا قطع الأسطول الفرنسي تقترب من البر، وفي الحال قاما بتشليح بعض ملابسهما وأطلقا بعض الغازات في الجو فمات كل العساكر الفرنسية وارتدت الغزوة الصليبية، ونجت مصر بفضل هذا الاختراع الجهنمي الغريب».

لا أقول - لا سمح الله - إن الإخوان محتلون كالفرنسيس لكي نضربهم بهذا السلاح الشعبي، لكنني فكرت أنه إذا كان البعض يستعجل إسقاطهم بالصدوق، والبعض ليس لديه وقت لانتظار ثورة شعبية ضدهم، وإذا كان المولوتوف قد وجد من يقوم بشرعته استخدامه، فلماذا لا نشرع استخدام الغازات الآدمية ضدهم، جت عليها هي يعني؟ على الأقل هي أقل فتكا من التصريحات التي تنطلق من أفواه أغلب المتحدثين على الساحة السياسية، هذه فكرتي المتواضعة، إن أعجبك فادرس كيفية تنفيذها، وإن لم تعجبك فلن تكلفك شيئا سوى فتح الشباك واعتبارها «فكرة» وعدت.

## ثيلة اختفاء التمثال

خبر مفزع حقاً ذلك الذي نشرته صحيفة (المصري اليوم) عن اختفاء تمثال السيد الرئيس الذي تم نصبه - ونصبه هنا فعلٌ وليس صفة - في ميدان الكيوت كات من قبل عدد من المواطنين المحبين للرئيس، والذين لم يشاهدوا على ما يبدو فيلم (الحب وحده لا يكفي) برغم أن أحداثه كانت تدور قريباً منهم في جزيرة الوراق؛ ولذلك فقد أهملوا إكمال واجبه المقدس في حماية التمثال والسهرة على سلامته وأمنه واستقراره، لتكون النتيجة المؤسفة أن التمثال اختفى دون أن تتوفر معلومات مؤكدة حول مصيره، وهو ما أقض مضاجعنا وأثار شجوننا وجعلنا نشعر باكتئاب حقيقي أن يتم اختطاف تمثال سيادة الرئيس من بيننا ونحن نرى دون أن نحرك ساكناً ونذود عنه باذلين الغالي والرخيص، صحيح أنه لم يعد هناك شيء رخيص في عهد سيادته، لكن لا مشكلة، دعونا نفاصل على شيء غالي إلى أن يصبح رخيصاً لنبدله بعد ذلك.

نحن قلقون جداً يا ناس، برغم أن البعض من ولاد الحلال طمأننا وقال لنا إن التمثال والحمد لله بخير وإن كل ما في الأمر أن الجهات المستولة قامت بنزعه من مكانه بناء على أوامر عليا، مذكراً إيانا أن

حكام هذا العهد لا يحبون أبداً أن يتم إقامة تماثيل لسيادة الرئيس، وليس كما يقال لأنهم يخافون مما جرى لتماثيل العراق، فالثابت الصحيح أن موقف حكامنا من موضوع التماثيل موقف مبدئي يسبق إزالة تمثال صدام وشاوشيسكو وغيرهما من الحكام الذين رحلوا ورحلت تماثيلهم معهم، وبقي سيادة الرئيس بحمد الله من غير أي تمثال. هنا يطرح البعض تساؤلاً عن الذي يجعل سيادته يتسامح مع الصور واللافتات واللوحات المرسومة له، مما يدفع للسؤال عما إذا كان هناك موقف ديني وراء موضوع التماثيل هذا فيصبح واجباً أن نزداد له حباً وندعو له بحرارة أكثر خلف شيخنا الرقيق محمد سيد طنطاوي في كل صلاة جمعة؟ على أي حال حتى لو لم يكن هناك موقف ديني فأحنا كده كده بندعي، وربنا العالم بالقلوب.

لكن البعض ينكر حكاية البعد الديني الذي يجعل سيادته يكره التماثيل، ويستدل على ذلك بأن هناك تماثيل في قلب القاهرة لنجيب محفوظ وطه حسين وعبد المنعم رياض، مع أن إنجازات هؤلاء لا تأتي ذرة في بحر إنجازات سيادة الرئيس، فإذا كان عبد المنعم رياض بطلاً من أبطال مصر، فالرئيس هو صاحب الضربة الجوية الأولى والأخيرة، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الضربات البرية في مواقع البناء والإنتاج. وإذا كان نجيب محفوظ قد حصل على جائزة نوبل، فالرئيس له جائزة باسمه يمنحها كل عام، ولا وجه للمقارنة بين حاصل على جائزة وبين صاحب جائزة من بابها، وإذا كان طه حسين قد قهر الظلام، فالرئيس قهر أشياء أخطر بكثير من الظلام.

عموماً، ليست مشكلتنا الآن أن نطالب بنزع تماثيل أحد، فقلوبنا مشغولة بالاطمئنان على مصير التمثال، خاصة أننا لا نريد أن نعطي

فرصة لكل هماز لماز مشاء بنميم؛ لكي يطلق الشنبيعات والتخرصات حول مصير التمثال ليقول إن التمثال زهق من كثر النفاق وهج على بلد ثانية، ويدعي البعض الآخر أنه لم تكن هناك تعليمات رسمية بنزع التمثال وإلا لما كان قد تم وضعه من الأساس ويستشهد بتصريحات مسئول المحافضة للمصري اليوم والتي قالوا فيها إنهم لا يعلمون عن مصير التمثال شيئاً، وهو ما جعل البعض يشعر بمشاعر قلق شديدة على مصير التمثال. بالطبع لست من القلقين على أن يحدث للتمثال مكروه فنحن نعلم أن محبة شعبنا للرئيس كبيرة، وأنه يكن له معزة خاصة بدليل تدافعه على تعليق لافتات المبايعة له في كل حذب وصوب، صحيح أن ضباط الشرطة ساهموا في تذكير المواطنين بضرورة ذلك، ولكن ذلك كان من باب أن الذكرى تنفع المواطنين.

إن الشعوب التي لا تحترم تماثيل حكامها وتمثل بتلك التماثيل هي الشعوب المقهورة المقموعة التي لا تتمتع بإنجازات الحاكم ولا تحسن أن قلبه عليها، ولعلنا جميعاً شاهدنا ما حدث في العراق من مهازل عندما تسابق المواطنون الكفرايون من عيشتهم على تكسير تماثيل المهيب الركن صدام حسين لياخذ كل منهم حته يفرغ كبته فيها بالطريقة التي يراها مناسبة؛ البعض اكتفى بالدوس بالأقدام والبصق والضرب بالأحذية، والبعض الآخر قام بصهره ما حصل عليه من التماثيل النحاسية لتحويله إلى كوز ينفعه في الحمام، ويقولون - والعهد على الراوي - إن مواطناً عراقياً تعرض للاغتصاب في السجن قام بخلع تمثال صغير من مكانه واصطحبه إلى البيت وأصر على اغتصاب التمثال، لكنه فشل من شدة خوفه، ويقولون إن التمثال صحي بالليل واغتصبه.

وبرغم أننا والشعب العراقي شعب عربي واحد ضمه في حومة البعث طريقاً، على رأي اللواء محمد عبوهاب، إلا أننا نؤمن بأن كل الحكايات السابقة تحدث فقط في الدول المستبدة التي تعاني من الظلم والقهر والفقر والقمع، أما في بلادنا فنحن مهما كنا قلقين على مصير تمثال السيد الرئيس ومهما طالبنا بأن نعرف مصيره وإلى أين ذهب، فنحن نؤمن أنه سيليقي معاملة تليق به، ونؤمن أنه أياً كانت الجهة التي وقفت وراء نزع التمثال من مكانه فهي يجب أن تعلم أن كل فرد منا بنى في قلبه تمثالاً لسيادة الرئيس؛ لأن ما فعله لنا لا يحتاج في الحقيقة إلى تماثيل لكي نتذكره، فإنجازاته حاضرة بيننا أينما حللنا أوارتحلنا، في الماء الذي نشربه والهواء الذي نتنفسه والبطيخ الذي نشقه، والكوبري الذي نقف بالساعات عليه، والمحور الذي نأخذه، والمونديال الذي لا ننظمه، والصرف الذي نصرفه في المواسير، والمستشفى الذي لا ندخله، والتلفزيون الذي لا نشاهده، والصحف القومية التي نأكل عليها، فهل نحتاج بعد ذلك كله إلى تماثيل؟

وحتى يظهر تمثال الحق ليزهق الباطل، أضم صوتي إلى صوت المطالبين بعمل حملة إعلانية في الصحف تعلن عن مكافأة قيمة لمن يستدل على التمثال ويبحث مع الشرطة عن مختطفيه، مصحوبة بحملة موازية موجهة لمن يفترض أنهم خطفوا التمثال تبدأ بجملة «عزيزي سارق التمثال: تذكر قبل أن تؤذي التمثال أن لديه أسرة تحبه، أسرة مكونة من ٧٠ مليون مواطن، وتذكر أن كل أذى تلحقه بالتمثال الواقع هيقعد لك في عيال لك وعافيتك».

## دليل الحاكم الحنثيت إلى فن الإتيكيت

- لا تفتح صدرك أمام الشعب في بداية حكمك إلا إذا كنت تمتلك الشجاعة الكافية لفتح صدرك طيلة فترة حكمك.

- التلويح بيدك عاليا لن يجعل منك معبود الجماهير. وصوتك العالي دليل على ضعف موقفك، وتبريق عينك دليل على بوظانك من الداخل، اصنع إنجازات شعبية ثم اترك إنجازاتك تصرخ بالنيابة عنك، واكتفِ أنت بابتسامة هادئة.

- الاهتمام بالنظافة الشخصية «يُسَهِّل» طريقك في الحكم، وبُشَل محاولات أعدائك في الإمساك بك.

- حاول التحكم في عينيك أمام كاميرات التصوير، لا يحب الناس أن يروا حاكما تتحرك حدقتا عينيه بشكل يوحي بأنه خائف من كبسة البوليس في أي وقت.

- استخدام كلمات غريبة على شعبك يجعل منك عرضة للسخرية بشكل أبلج.

- استخدام الإصبع عند مخاطبة الجمهور يمكن أن يحدث نتائج عكسية تماما، ويذكر الناس بمصير من سبق لهم استخدام الإصبع في مخاطبتهم.

- عندما تحضر اجتماعا مع وفد أجنبي يحتوي على نساء، تذكر إبعاد يديك تماما عن مناطق التوتّر.

- حاول ارتداء أحذية سهلة الملبس لكي تساعدك على الجري من المساجد التي تصلي فيها، ولا تخرج على الناس حافيا تحت أي ظرف؛ لأن صورة الحاكم الحافي يمكن أن يجبهها الناس ويعتبروها دليلا على التواضع، إذا لم تكن قد التقطت له وهو يسير بصحبة حرس مدجج بالسلاح ويركب سيارة مصفحة، فهي عندها توشي بخوف الحاكم من شعبه.

- إذا كنت متعودا على الكذب، فحاول اختيار متحدثين باسمك يوحي مظهرهم بكثير من الصدق وأقل قدر ممكن من اللزوجة.

- لا تلجأ إلى إحاطة نفسك بمساعدين لديهم ضعف أمام الزواج العرفي.

- لا تنظر إلى ساعتك وأنت في اجتماع مع ضيف أجنبي، خاصة إذا كان يعلم أن الوقت في بلادك ليس مهماً على الإطلاق.

- ارتداء ملابس فضفاضة يعطي انطباعا سياسيا بأنك لا تملأ مركزك. حاول مصادقة خياطك الخاص لأنه يمكن أن يكون عدواً لدودا لك.



- الضرورات تبيح المحظورات؛ ولذلك قد يكون ابتلاعك لبعض السوائل الموجودة في منطقة الحلق أكثر فائدة للوطن من إخراجها لتستقر في منديل قماشى أمام الملايين.

- إذا كنت قد تعودت على الظهور متجهما أمام الشعب لكي تعطي انطباعا بالجدية، فعليك أن تذكر ذلك في لقاءاتك مع المسؤولين الأجانب؛ لأن ظهورك معهم وأنت فاشخ ضبك على اتساعه يفسد كل ما بذلته من مجهود لكي تعطي انطباعا بالجدية وحمل الهموم.

- لا تختبر حرسا أطول وأضخم منك؛ لأن سيرك وسطهم أمام كاميرات التلفزيون يحولك من سياسى إلى «فارسير».

- إذا لم تكن تعرف معنى فارسير، يمكن أن تلجأ لإدارة الترجمة التي تعمل معك وستقول لك إنه مصطلح يطلق على الممثل المتخصص في الأدوار الهزلية.

- إما أن ترفع حزامك أعلى خط الوسط، وإما أن تقوم بالتخلص من الكرش التي أصبحت تظهر كلما نزل الحزام قليلا، أو تحقق إنجازات سياسية تجعل كرشك موضع حب الناس بدلا من وقوفهم لك على الفاضية والمليانة.

- تذكر وأنت تختار الكرافطة المناسبة للخروج بها على الشعب، أن كرافتاك لن تغني عنك من الله شيئا، ولو دامت الكرافتات لغيرك لما وصلت إليك.

- لا تضع الكثير من العطور؛ لأنها لمعلوماتك لا تصل إلى مشاهدي التلفزيون، والأفضل أن تهتم بإخفاء الرائحة التي تنبعث من قراواتك السياسية.

- هناك فرق بين التمشية في الطريقة الواصلة بين أودة النوم والمطبخ، وبين التمشية اللاتقة بحاكم يسير في مطار دولة أجنبية يزورها، ارفع قدميك عن الأرض وأنت تسير، فالتزحيف في المشي يشير بصورة خفية إلى تزحيف السياسات.

- لا تؤرجح ذراعيك أثناء السير كأنك راجع من القرن الإفرنجي بكيس من أرغفة الفينو، احرص أثناء مشيك على جعل حركة الذراع اليمنى مع القدم اليسرى، وحركة الذراع اليسرى مع القدم اليمنى، لكن حاول أن تتدرب على هذه الحركات قبل أدائها؛ لكي لا يستدعي عقلك الباطن مشية إسماعيل ياسين في أفلامه الكوميدي فتجيب لنفسك المزيد من الكلام.

- وأنت تختار سياسة مناسبة للظهور على الناس في خطابات سياسية، ضع نصب عينيك المثل الشعبي القائل «مش هُرْ هُرْ أو ترُ ترُ»، بحيث لا يراك الناس تخطب كل يومين، أو لا يرونك تتحدث على الإطلاق في الأوقات العصيبة، تذكر أن الناس عندما كانت تأمل فيك الخير كانت تستحمل قدرتك المدهشة على الرغي دون انقطاع، وحاول أن تشغل نفسك بالتساؤل عن السر الذي يجعل المحيطين بك ينصحونك دائما بقلة الكلام منعا لتصيد الأخطاء.

- مهما اجتهدت في رفع رأسك لكي ترحي بالثقة، فتذكر أن رأسك سينخفض مع كل مواطن يراق دمه أو تهان كرامته أو يضيق رزقه.

- أخيرا: عند استخدامك لجهاز الآي باد وتحت أي ظرف من الظروف وأيا كانت المبررات ومهما كانت الدواعي وبغض النظر عن الملابس، ما تلحشش صباغك، ما تلحشش صباغك، ما تلحشش صباغك.

فبراير ٢٠١٣

### ما يتهددناش الزلازل يا باشا

صدقني، لم نكن في حاجة إلى زلزال بالأمس ليذكرنا أننا لا زلنا نعيش في نفس دولة الظلم والاستهانة بالآدمية التي زارها شقيقه قبل ٢١ عاما في نفس اليوم والتوقيت.

وَقَرَّ كلامك عن أي رسائل يحملها الزلزال، وتذكر أننا معتادون على الاستقبال الخاطئ للإشارات الإلهية والتنبيهات الكونية، وأننا سنحول الزلزال إلى فقرة مبتدلة في حربنا اليومية التي نحاول أن نجهز فيها على بعضنا، سيقول الإخواني إن الزلزال يعني أن عدالة السماء ليست راضية عنا، كأنها كانت متجسدة عندما كان جيكا والجندي وكريستي وعشرات غيرهم يقتلون على يد الداخلية التي كان هو ورئيسه يهملان لها ويسخران من كل مطالب بتطهيرها وإصلاحها، وسيقول أنصار منهج «افرم يا سيسي» إن الزلزال دليل على أن عدالة السماء راضية عنا كل الرضا؛ بدليل أن الزلزال لم يتسبب في مقتل مواطن واحد، ولا أظنك بعد كل ما شهدته من هراء ستندش لو وجدت «مواطننا شريفا» يعتبر الزلزال دليلا على أن الأرض رقصت طربا عندما سمعت أن الفريق السيسي عازم على حكم مصر فور «تضييق» التخصيصات اللازمة.

لا تظن أن كوارث الدنيا يمكن أن تفرق معنا ببصلة، فنحن لن يوقظنا من غفلتنا زلزال شديد اللهجة ولا بركان فتاك الحمم ولا إعصار كاسح الخراب، بل لا قدر الله لو أصابتنا كل تلك المصائب لاستغللناها في تبادل الاتهامات واللعنات، وبأدرا إلى توظيف ما سنتتجه من خراب لتسجيل «الأبناط» اللازمة لحسم «حركة» الكرسي.

صدقني، من لم يعظه الموت فلا واعظ له، ولو كان هناك شيء يمكن أن يغيرنا إلى الأبد، لكانت دماء أبنائنا التي سالت على الأسفلت منذ ٢٥ يناير وما تلاه، واللاه، حاول أن تذكر أحدا الآن بهؤلاء وبحقوقهم الضائعة وبما فعلناه بمطالب الثورة التي ضحوا بحياتهم من أجلها، وستجد نفسك على الفور متهمًا بأنك راغب في المتاجرة بدمائهم أو محرض على مؤسسات الدولة العظيمة أو راغب في شق صف الشعب المشغول بالإجهاد على أعدائه، الذين قال له بهوات التوك شو إنه يجب أن يجهز عليهم سريعا؛ لكي يهدأ ويستقر ويدير عجلة الإنتاج ويتمتع بسبل المعونات المنهمر من الشرق.

لا تحاول أن تسأل أحدا: «كيف يمكن لشعب أن يجهز على بعض من أبنائه، حتى لو كان ذلك البعض ذات نفسه لا يمانع في الإجهاد على البعض الآخر؟»، فكلام مثل هذا ستفوح منه رائحة مريية، يقول خبراء الفضائيات إنها رائحة الطابور الخامس اللعينة التي تحجب عطر الانتصار المجيد عن خياشيم المواطنين؛ لذلك عندما ترى مثلاً ضابطاً يقف في عرض الطريق يضرب مسيرة سلمية برصاص رشاشه فيقتل شاباً في عمر الزهور في سويداء القلب، فإن لم تبارك ذلك وتهلل له، فكبيرك أن تصمت وتشيح بوجهك كأن الأمر لا يعينك، لكن إياك أن تفقد عقلك فتفتح فمك بالرفض أو

الامتعاض أو حتى بالتساؤل عما إذا كانت تصرفات قذرة مثل هذه ستجلب لنا الأمن والاستقرار فعلا.

عليك أن تعتمد العقلية التي لن تحصل على صك الوطنية بغيرها: «هؤلاء خوارج يؤمنون بالخلافة ويكرهون الهوية المصرية ولذلك فقد سقطت كافة حقوقهم الإنسانية، وحتى لو كانوا لا يحملون سلاحاً فمجرد وجودهم خطر على هوية البلد، وقتل أي ضابط شجاع لهم دون تطبيق القانون يمثل ثأراً للزملائه الذين سقطوا شهداء في كرداسة وسيناء وغيرها»، إياك أن تظن أن إدانتك لكل حادث إرهابي يسقط ضحيته ضابط يؤدي واجبه أو مجند مغلوب على أمره، ستسمح لك بأن تنبه إلى أن الرصاص التي يقتل بها ضابط مواطن بشكل همجي لا علاقة له بالقانون، سيدفع ثمنها للأسف زميل له في مكان آخر، «فكك» وإذا كانت لديك شكوك تخص قدرتنا على أن نقضي على أنصار تيار بأكمله، فعلى الأقل دعنا نحاول أن نجبر من سيتبقى من أفراده على الخضوع، وإذا كنت تتمنى أن تنتصر على تيارات الشعارات الإسلامية بصناديق الانتخابات، بما أننا واثقون من رفض الشعب لهم، أرجوك احتفظ بأمانيك المختنئة لنفسك ودع غيرك يقتل في صمت.

على الجانب المقابل، لا تحاول تذكير أنصار الإخوان بخطاياهم التي أوصلت الوطن كله إلى ما هو فيه الآن، لا تحاول أبداً أن «تبدأ» الحكاية من أولاً، لا تحاول إقناعهم بأنهم لن يستطيعوا تغيير الواقع إذا لم يغيروا أنفسهم أولاً، ويتخلصوا من قيادتهم التي خانت دماء الشهداء مرة تلو الأخرى، لا تطلب منهم أن يأخذوا هدنة للتفكير والمراجعة والتأمل قبل أن يواصلوا الانتحار من أجل أن يعيدوا إلى كرسي الحكم رجلاً ظل عاماً بأكمله «أينما توجهه فلا يأتي بخير».

عليك فقط أن تختار: إما أن تموت معهم من أجل رضا قادتهم الكذابين، وإما أن ترقص في الشوارع المروية بدمايتهم على أنعام (تسلم الأيادي)، ليس أمامك خيار ثالث فنحن الآن في معركة، والمعارك لا تحب المتحذلقين ولا الوعاظ ولا المتفلسفين ولا المتوجسين خيفة، المعارك لا يسلك فيها إلا أصحاب «القلب الميت»، فأمت قلبك وأخرس صوتك لكي لا يعلو فوق صوت المعركة الذي لم يعد يطربنا غيره.

أعلم أنك ستبيض لكي تعيد وتزيد في سيرة الشعوب التي أجبرت على العيش المشترك والتوافق الوطني بعد أن دفعت أثمنا باهظة، أرجوك أرح نفسك من عناء الرط، فبيننا من يمتلكون آمالا عريضة بأنهم يمكن أن يغيروا قوانين الكون، ألا توجد مرة أولى لكل قاعدة؟ دعنا نخطّ بشرف صناعة المرة الأولى في تاريخ البشرية التي تمكن فيها شعب من أن يصبح كتلة بشرية متجانسة مستقرة بعد أن أخرست أصوات المختلفين معها بالقوة دون أن تضطر لخوض صراع سياسي وفكري طويل المدى.

لا تنكر أن الأمر يستحق المحاولة، وحتى إذا فشلنا في تحقيقه بعد المزيد من الوقت والدم والأحقاد والضغائن، فاعتبر يا سيدي أن من ماتوا كانوا ضحايا للزلازل الذي جاء ورحل بستر ربنا من غير ضحايا، بل إن محاولتنا تلك ستكون أفضل من أي زلزال لأننا لم نخسر فيها سوى الناس، وفي هذه البلاد ليس لدينا أكثر ولا أرخص من الناس.

٢٠١٢

### طويلة لسه طويلة

قدرة بعض أبناء شعبنا الأبّي على «الضم» الأفكار المتخلفة الطائفية الحقيرة في أي أزمة جديدة تواجهنا، ستظل قدرة يقف المرء منّا أمامها مندهش العقل فاشخ الضب مرتبك الوجدان.

عصر الجمعة الماضية وعلى مدخل أحد مولات التجمع الخامس، شأت الأقدار أن أشهد رجلا يقف مستظلاً بشجرة من صهد الحرّ، وممسكا بموبايله ليقوم من خلاله بالتوعية السياسية لشخص آخر غائب عن الصورة، لكنه بدا من خلال أداء المتحدث كمتستمع جيد لأنه لم يكن ينطق على ما يبدو، على الأقل خلال الجزء الذي استمعت إليه والذي كنت أتمنى أن يطول لولا أن ابنتي الصغرى لكزّتني قائلة: «بابا إحنا كده هنسيح في الحر».

كان الرجل يقول لصاحبه وهو يوعيه: «يا باشا زي ما بقولك كده.. البلد اللي اسمها إثيوبيا دي خمسة وتسعين في المية منها مسيحيين.. لا وإيه مسيحيين كفاتسة زي اللي عندنا.. يياخدوا تعليماتهم من البابا اللي هيناهوت»، بالطبع حين تستمع إلى هذا المقطع ستفترض ابتداءً أن الرجل يحمل فكرة دينيًا متطرفا يسعى من خلاله لتبرير تقصير الإخوان

في أزمة النيل، لكن الرجل لن يجعل افتراضك هذا يعيش طويلا، بل سيعاجلك بمنطق يجعله عصيا على التصنيف ويجعل يومك عصيا على المرور، خصوصا حين تسمعه وقد طفق يقول لصاحبه: «فلما الكفاتسة الإثيوبيين لقوا البلد خربت بسبب المخروبة اللي اسمها الثورة قالك بقي نستنهز الفرصة ونخلص على المسلمين ونموتهم من العطش.. بس بعون الله بكرة الجيش هيخطهم كلهم». تقتضي الأمانة هنا أن أشير إلى أنه استخدم بدلا من تعبير التخطيط تعبيراً شعبياً أكثر بذاءة سيتعذر نشره وإن لم يتعذر عليك فهمه كما أظن، وعندما صمت الرجل قليلا توقعت أن الطرف الآخر يناقشه مثالا في عدم معقولية أن يتم «تمويت» المسلمين فقط من العطش لأن النيل لن يفرق بين مسلم ومسيحي، لكنه عندما عاد إلى الحديث اتضح أن الشخص الآخر سأل: «يخطط مين بالضبط؟»، فأجابه بثقة كانت تطفح من ملامح وجهه ونبرات صوته: «زي ما بقولك كده.. هيخط الكل بتوع الإثيويا وبتوع الثورة والإخوان والمسيحيين عشان البلد دي بقي تنضف».

عندما تحدث لي مواقف كهذه، وهي كثيرا ما تحدث لي لسوء حظي، أتذكر المرحوم عبد الحليم حافظ، ليس فقط لأنني أتذكر أغنيته الأحب إلى قلبي «موعود معايا بالعذاب موعود يا شعبي، ولا يتهدا ولا يتراح في يوم يا شعبي، وعمرك ما شفت معايا فرح، كل مرة كل مرة يرجع المشوار بجرح»، بل لأنني أتذكر على الفور عبارته المثقلة بالدلالات «طويلة لسه طويلة». منذ ثلاثة أشهر فقط كنت في لحظة وجدانية مواتية سمحت لي أن ألتقط المعنى فائق الأهمية الذي كان عبد الحليم حافظ يوصله لنا جميعا منذ أكثر من أربعين عاما من خلال عبارته تلك: «طويلة لسه طويلة».

كان عبد الحليم يكرر عبارته تلك كثيرا في أغانيه الطويلة عندما يهيص الجمهور ويزيط ويطلب منه أن يعيد الكويليه الذي انبسط به، وكأن أفراد الجمهور يتصورون أن عبد الحليم لو استمر في الأغنية دون إعادة كل كويليه ثلاث وأربع مرات، فستنتهي الحفلة سرعيا، وسيكون عليهم أن يواجهوا بقية الليلة بمفردهم بدون صوت عبد الحليم وحضوره الأسر. قد يكون ذلك حقاً ما كان يدور بذهنهم الجمعي فيدفعهم للزياط والهيص والشوشرة على صفاء عبد الحليم ورغبته في أن يسوق الليلة «زي ما هو شايف»، وقد تكون هناك أسباب أخرى لا نعلمها نحن ولا عبد الحليم، لكن عبد الحليم لم يكن يجد ما يقوله في مواجهة ذلك الزياط سوى أن يردد: «طويلة لسه طويلة»، لكنه كان يقولها في كل مرة بنبرة صوتية تعكس حالة مزاجية مختلفة. أحيانا كانت نبرة الصوت متضايقة ولكن بشكل لا يخفي فرحته بإعجاب الناس، فيبدو أن العبارة تحمل معنى «أنا مبسوط إنكو انبسطتوا سيونتي بقى أكمل لحد الآخر»، وأحيانا تكون النبرة أكثر عتابا وأشد ضيقا فيبدو لي أنها تحمل معنى «يا ولاد الذين يستجري حد فيكو يزيط كده في حفلة لأم كلثوم، كان اترمي بره الحفلة رمية الكلاب»، وأحيانا كانت نبرات الصوت لا تحمل سوى الضيق بذلك الزياط فيبدو أن العبارة تحمل معنى «الله يخرب بيت الحشيش اللي من يوم ما رخص والواحد مش عارف يغني»، وأحيانا تكون النبرات أشد غضبا فيبدو أنه يقول لنفسه: «قلت لمجدي يغلي التذكرة ما سمعش كلامي مافيش فايدة لازم نشرب القرف ده لغاية ما الحفلة تعدي»، لكن العبارة مع الكويليه الأخير ومع اشتداد آلام عبد الحليم البدنية، كانت تحمل نبرات شديدة العداء والمرارة تشعر فيها



كان عبد الحليم يريد أن يصرخ في الجميع: «بس يا ولاد المستسخة مش هاعيد أم الغنوة واولعوا بجاز».

كل هذا التخيل لمعاني عبارة عبد الحليم حافظ لا ألزم به أحدا غيري، تماما كما لا ألزم أحدا بالمعنى الجليل الذي التقطته من تلك العبارة التي أصبحت شعارا أسير به في الحياة منذ ثلاثة أشهر وسأسير به إلى ما شاء الله لأشعر براحة نفسية رهيبة كلما اقترب مني شخص ليقول لي كلاما من نوعية «عاجبك اللي حصل في البلد؟ بالذمة مش تسرعوا؟ خدنا إيه من الثورة؟ مش كان زمان أحلى؟»، فلا أكرر خطئي القديم بأن أقول له كلاما عقليا منطقيا هو أصلا لا يريد أن يسمعه؛ لأنه إما كاره للثورة وإما غير مشغول بفهمها وإما لأنه من معتنقي مذهب «وهي إيه اللي وداها هناك؟»، بل أكتفي بأن أبتسم له ابتسامة بلهاء وأقول له وقد تقمصت روح عبد الحليم: «طويلة لسه طويلة»، ثم أتركه وأمشي ممثلا بجمال المعنى الحليمي ومستعدا للكوبليه القادم من حياتي.

على نفس الصعيد، استعبر ذكرى هزيمة الخامس من يونيو علينا كما عبرت علينا من قبل هي وكل ذكريات هزائنا الصريحة وهزائنا التي دلعناها وسميناها نكسات، وهزائنا التي ضحكنا على أنفسنا واعتبرناها انتصارات، وهزائنا التي اعتمدنا على أن أحدا في حارتنا لن يتذكرها، لأن آفة حارتنا النسيان.

ربما كان الجديد هذه المرة، أننا أصبحنا نستخدم سيرة هزيمة يونيو وسيرة المسئول سياسيا عنها جمال عبد الناصر، كوسيلة للصبوغة السياسية، الإخوان مستمرون في اتباع عاداتهم المفضلة

«كل ما تترنق اشتتم عبد الناصر»، كأن شتيمة ستقنع الناس أنهم أصحاب فكر ورؤية ومنهج، وأعداء الإخوان من محبي عبد الناصر يظنون أن مجرد البكاء على سيرته وتذكير الناس بها سيجعلان الناس يكرهون الإخوان أكثر، وسيجعلان الإخوان يموتون غيظا؛ لأنه لم يخرج منهم قائد عظيم ملهم ساهر مثل عبد الناصر. للأسف كان بعض المتفائلين يظن أن الثورة في موجتها الأولى ستكون فرصة سانحة لنزع كل هذا الهراء من العقلية المصرية، وستدفع الكثيرين إلى أن ينظروا إلى تاريخ مصر الحديث والمعاصر بوصفه حلقات متصلة مترابطة، وهو أمر لو أدركناه لعلمنا أن كل ما نعانیه من أزمات خطيرة مثل ملف مياه النيل وملف سيناء وملف الطاقة وملف الأمن القومي، من أهم أسبابه هو اختيارنا القديم لنموذج الزعيم الملهم صاحب الرؤية الذي يفكر ويقرر «وإحنا كلنا حواليه أو تحت رجليه والشعب يبسعى إليه».

سيرة هزيمة خمسة يونيو تستدعي دائما لدى دراويش عبد الناصر سيرة المؤامرات التي لم تحدث الهزيمة إلا بسببها، فلم نسمع حتى الآن نقدا متكاملا صريحا يخرج من داخل التيار الناصري للأخطاء التي ارتكبتها ناصر وأدت إلى الهزيمة، التي لا زالت تؤثر في واقعنا حتى الآن؛ مما يجعلهم شديدي الشبه بالمشروع الإسلامي الذي يعادونه؛ لأن أنصار ذلك المشروع لا يكفون طيلة الوقت عن تبرير فشلهم بالحديث عن المؤامرات، حتى وهم يحطون بالدعم الأمريكي العلني لا يتوقفون عن الحديث عن المؤامرات، وهو ما يجعلك تفكر كم هو عظيم ذلك القانون الفيزيائي الذي أخبرنا أن الأقطاب التي تتنافر هي دائما متشابهة جدًا.

عندما تنتهز فرصة خمسة يونيو لتذكر البعض بأهمية تأمل درس الهزيمة الأهم «لن تحصل أبداً على تنمية شاملة ولا على كرامة وطنية ولا على استقلال سياسي إذا قمت بسحق الحريات الفردية، وإذا تعاملت مع المواطن على أنه رقم فرحان في الصورة»، فستجد من يقول لك: «ما قبل عبد الناصر لم يكن جنة»، دون حتى أن تكون قد قلت يوماً ما إنه جنة، وستجد من يصرخ فيك أن: «ما بعد عبد الناصر لم يكن جنة»، كأنك قلت أصلاً إنه جنة، وستجد من يقول لك أيضاً: «مش أحسن من المتأسلمين ولاد كذا»، كأنه مكتوب عليك أن تكون دائماً ملتزماً بالبقاء ضمن صفوف فريق تشجعه، وتشتم أمهات من في الفرق الثانية جميعاً بلا استثناء.

مع أن المسألة ليست أن تكون محباً لعبد الناصر أو كارها له، فقد رحل الرجل إلى ربه وأفضى إلى ما قدمه لوطنه، سيظل أعظم ما في عبد الناصر أنه اختار المقاومة بعد الهزيمة، ولم يستسلم وسعى لكي يصلح أخطاءه التي أفضت بنا إلى الهزيمة، لكن المسألة ليست أبداً متعلقة بشخص عبد الناصر وحياة أمي وأملك الغاليتين، المسألة أننا نفوت الفرصة تلو الفرصة للاستقرار على بديهية واحدة استقر عليها عقلاء العالم الذي تقدم، هي أنه لن يوجد شعار أيًا كان نبيله ولا شخص أيًا كانت عظمته يقدر على إنقاذ أمة بأكملها، فما بالك لو كانت أمة غارقة في أم المشاكل والخييات والهزائم؟ المؤسف أننا لمسنا هذه البديهية بأيدينا في الحادي عشر من فبراير عندما أطحننا بمبارك من على عرشه، ومنذ تلك اللحظة التي بادر فيها رماة الإخوان إلى جمع الغنائم السياسية وفارقوا الميدان الذي انضموا له متأخرين، ونحن نتنقل من هزيمة إلى أخرى، فهل نتعلم قبل أن

تأتي ذكرى خمسة يونيو القادمة أن العودة إلى حدود حداثر فبراير هي وحدها المنقذ؟ يبدو ذلك الآن خيالا جامحا وخيارا مستحيلا، لكنني أوقن أننا ذاهبون إليه حتماً ولا محالة، سواء بالدم أو بالعطش أو بهما معا.

أو كما قال عبد الحليم حافظ: «طويلة لسه طويلة».

يوتيو ٢٠١٣

## الشاكِم بأمر الله

لم يعد غريبا في ظل التشوش الذهني الذي يعصف بنا من كل اتجاه أن تجد كل يوم مواطنين شرفاء يتباهون بعظمة وعبقريّة الشعب المصري وتفردّه عن بقية شعوب الأرض، قبل أن يرددوا بعدها مباشرة عبارات من نوعية: «بس شعبنا محتاج حد يشكّمه.. شعبنا كده مايجيّش غير بالعين الحمراء، وماينفعش تسبب له الجبل على الغارب»، دون أن يبدو لهم أن هناك تناقضا بين فكرة وجود شعب عظيم ورائع وعبقري، وفكرة أن نفس ذات هذا الشعب محتاج للشكّم والعين الحمراء والضرب بمقامع من حديد.

ليس غريبا أن يؤمن بهذه الفكرة الفاسدة رجال الدولة القمعية الذين كانت الثورة «بالنسبة لهم نكسة»، فهم يعتبرون أن مصر كانت في غربة وشاء الله أن يرد غربتها بعد ٢٦ يوليو لتعود لهم ولكن هذه المرة إلى الأبد كما يظنون، بل وليس غريبا أن يصدقها المواطن العادي نفسه الذي يؤمن أنه عظيم وعبقري لكن ما يمنعه من جني ثمار ذلك انتشار المخربين الذين لن يقضي عليهم إلا شاكِم حاسم حازم، وهو مستعد لأن يحارب الجميع من أجل مجيء هذا الشاكِم في أسرع وقت، وهي بالنسبة إليه حرب شريفة، لأنه لا يخوضها من

أجل ثروة يصيبها أو سلطنة ينكسها، وإنما من أجل مجيء حاكم يوفّر له الحد الأدنى من احتياجاته، خاصة أنه لم يعد يجد حتى الفتات الذي كانت تلقى له دولة مبارك، هو لن يصغي إليك إذا حدثته عن حقوقه الكاملة التي يمكن أن يحصل عليها لو حققت الثورة مطالبها؛ لأنه عندما حلم عقب قيام الثورة بأنه سيحصل على كامل حقوقه فقد حتى الفتات الذي كان يحصل عليه، لا تضع وقتك في تبصيره بخطورة الاستسهال، ولا في تذكيره بأن مبارك وابنه كانا ينويان أصلا خصخصة ذلك الفتات وإجباره على قبول ذلك بقوة الشكّم، عندما ستعيش ظروفه كاملة فقط ستفهم لماذا يفرض في حقوقه، ولماذا هو مستعد لأن يطبق في زمارة رقبته؛ لأنه يتخيل أنك برفضك وشغبك تعرقل مجيء الشاكِم بأمر الله الذي سيحل كل مشاكله.

الغريب والمريب والمحزن والمقرف أنك تجد من بين مروجي وهم «الشاكِم بأمر الله» أناسا من الذين شاركوا في الثورة حتى قبل أن تندلع بسنوات، وبعضهم يحملون آثار الشكّم المباركية على أجسادهم وأرواحهم وأعمارهم، ومع أنهم يعلمون كيف راح هباء ماثورا كل ما أنفقته مبارك على الشكّم والقمع من مليارات كان يمكن أن تغير واقعنا إلى الأفضل لو أنفقها على التعليم والصحة، لكنهم يظنون أن مشكلة مبارك أنه كان يشكّم دون وجود قاعدة جماهيرية تحبه وتسانده؛ لذلك لا ينبغي أن نضيع الآن فرصة وجود قائد عسكري يتمتع بجماهيرية عريضة ستساعده على أن يشكّمنا لما فيه خير البلاد والعباد.

المشكلة أن كل من يعتقدون أن خلاصنا في مجيء الشاكِم بأمر الله على اختلاف مشاربهم السالف ذكرها، لا يظنّون تصورا

تفصيليًا يمكن أن يقتنعك بقدرة عبد الفتاح السيسي أو غيره على شكм البلاد وتحقيق الاستقرار اللازم لشبكة الشعب بالمليارات القادمة من الشرق، على الأقل لكي تخنق بيدك كل ما تعرفه عن بديهيات ارتباط النمو الاقتصادي بالإصلاح السياسي وحرية التعبير والتعددية السياسية الحقيقية وضمن تداول السلطة، أقصى ما يقدمه هؤلاء أن يحدثوك عن عبقرية التجربة الروسية وعظمة التجربة الكازاخستانية وحلاوة التجربة الفنزويلية وفرادة التجربة الصينية «مالها الصين وهي الصين وحشة؟».

خلال الفترة القادمة لن تجد تجربة على وجه الأرض تم الجمع فيها بين النمو الاقتصادي ومرمطة الحريات العامة إلا وسيتم استدعاؤها وتزيينها للناس دعما لمجيء الشاكم بأمر الله، بالطبع لن تسمع من هؤلاء الذين بدأ صوتهم يعلو في البرامج والصحف بالترويج للنموذج الروسي أي كلام عن حقيقة الأزمة الاقتصادية التي باتت تهدد روسيا ولا عن فشل تجربة بوتين في تحقيق وعده برفع معدلات النمو، ولا عن الفقراء الذين سحقتهم سياساته ولا عن طبقات الحرامية التي أثرت بفضلها على حساب الشعب، كل هذا ليس مهتمًا، المهم أن الله رزقنا الآن بوتين، أما ميدفيديف فمقدور عليه وألف من يمتنى لعب دوره، يبقى أن يختار بوتين بتاعنا الـ«ميدفيديف» بتاعه، والله الموفق والمستعان.

بالنسبة إلى هؤلاء، ليس مستحبًا أن نتحدث الآن بصوت عالٍ عن تجارب البرازيل وتركيا وتشيلي والأرجنتين وجنوب إفريقيا والهند وغيرها من الدول التي تغير حالها إلى الأفضل بفضل الديمقراطية وتداول السلطة، ولا أن تقول إنه برغم كل ما تعاناه هذه الدول

من انفجارات اجتماعية وتحديات اقتصادية وأزمات سياسية فإنها لا زالت مصرة على الاستمرار في مسار التحول الديمقراطي؛ لسبب بسيط هو أن البشرية لم تعرف حتى الآن مسارا أكثر عملية وقابلية للتطبيق غيره، وحتى عندما طمع بعض قادة هذه الدول ورغب في تحويل الديمقراطية إلى «صندوق قراطية» - على حد التعبير العبقري الذي صكه الكاتب الرائع عمرو عزت - لكي يغيروا قواعد اللعبة الديمقراطية لتصب في مصلحتهم وحدهم، تمكنت حركة الشارع الغاضبة من تبديد أو تهديد أطماعهم وفرضت عليهم أن يغيروا طريقهم إما عن اقتناع وإما حتى بحكم الضرورة، وقد كان المفروض أن يكون هذا هو نفس الدرس الذي سيلقنه الشعب المصري لحمقى الإخوان الذين صعدوا إلى السلطة على أكتاف الثورة، وخانوا جماهيرها بمجرد أن ظنوا أنهم تمكنوا من السلطة؛ ولذلك كان المطلب الرئيسي للملايين المتمردة على مرسي وجماعته هو إجراء انتخابات رئاسية مبكرة، وهو المطلب الذي تم اختطافه ليتم وضع خارطة طريق جرى تصميمها لتقودنا إلى أن يصعد على سطح الكرسي «شاكم» جديد ثم يسحب السلم لكي لا يصعد عليه إلا عضو جديد في رابطة الشاكمين بأمر الله.

قد تسألني: طيب، ماذا لو كان الشكм حلًا مؤقتًا ينقذنا من الدوامة التي نتخبط فيها، ويضع أقدامنا على أول الطريق الذي يوصلنا بعد ذلك إلى الديمقراطية الحقيقية؟ يبدو سؤالك وجيهًا ومنطقيًا، وسأرد عليه بسؤال قد لا تراه وجيهًا لكنك لا يمكن أن تراه غير منطقي هو: «من قال لك إن الشكم ممكن أصلاً؟».

محمد مرسي كان يمتنى أيضا أن يكون شاكما بأمر الله، لكن

معدل ذكائه لم يخدمه في قراءة الواقع المحيط به، لعلك تذكر اللحظة التي تصرف فيها كأن له ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحته، وقال قوله الشهيرة: «وفيها إيه يعني لما شوية ناس تموت عشان البلد تمشي؟»، دون أن يدري وقتها أن الله سيبتليه هو ومن صنفوا له بمن يحول تلك المقولة إلى واقع مريموت فيه هو وأنصاره ويفقدون حرياتهم وحقوقهم على أيدي أناس تختلف مشاريعهم وأفكارهم ولا يجمعهم سوى مبدأ وحيد هو: «وفيها إيه لما شوية ناس تموت عشان البلد تمشي؟».

كثير من أنصار مرسي يجاهرون الآن بأن سر وكسته كانت أنه لم يشكهم معارضيه بما فيه الكفاية، وهو نفس ما يعتقد الذين ينهالون سباً ولعناً على حكومة حازم البلاوي التي يرون أنها لا تشكهم الإخوان وأنصارهم وطابورهم الخامس بما فيه الكفاية؛ ولذلك يمثلون الدنيا صراخاً لاستعجال اليوم الذي يحكم فيه الفريق عبد الفتاح السيسي البلد «رسمي فهمي نظمي» ليتمكن من شكهم الأحوال المتقلبة وإنهاء مناخ الترقب المدمر للأعصاب، وبالطبع لن تبخل عليه كل أجهزة القمع التي استعادت لياقتها الكاملة، وربما لو خلصها السيسي من شوكة «الجناح الديمقراطي» المحشورة في زور الوطن لأعادت أمجاد الستينيات في لمح البصر، خاصة أنه لم يعد ينقصنا شيء الآن، فلدينا قائد ملهم وإعلام «مايقولش لا» ومتقنون مضبوطون على وضع التبشير، والأهم من كل ذلك «شعب فرحان تحت الراية المنصورة».

لكن كيف سيشك الفريق السيسي البلد إذا حكمها سواء بنفسه أو من خلال «ميدفيدف» محلي الصنع؟ هل سنستورد من روسيا

السلاح والقمع والقمع بكاتم الصوت أيضاً؟ هل سيصبح خيارنا الديمقراطي منحصراً بين أن تؤيد السيسي بجنون أو تؤيده بشدة أو تؤيده سادة؟ هل ستنتج ماكينة تزوية القوانين التي تم تزيت تروسها في وزارة العدل المزيد من التشريعات لتجريم من يجرؤ على انتقاد أكبر رأس في البلد، فنعود إلى عصر الاستبداد على عبيد المأمور دون المأمور؟ وإذا فكرت الدولة أن تقوم بتفعيل مشروعات القوانين التي تحاول سد ثغرات الشك المباركي، بملاحقة كل من يخرج على النص سواء في القضاء الافتراضي أو جرافيتي الحوايط أو مدرجات الملاعب بل وحتى في شاشات المحمول، فهل ستكفي مليارات الخليج لتأمين الموارد اللازمة لتمويل حربها اليومية مع جيل الشباب الذي لم تكنف الدولة بقتل أحلامه، بل تريد أيضاً قتل رغبته في السخرية والرفض بل وحتى الصراخ بأسماء رفاقه الذين ماتوا في عز الشباب ليقبى عواجز الدولة في عز السيطرة؟ وإذا اكتشفت دولة اللواءات أنها لن تستطيع أداء دور الشاكم القوي الذي يعيش على المعونات ويطلب رضا المجتمع الدولي «في بروجرام واحد»، فكيف سيكون منظرها أمام أنصارها الذين أدمنوا طعم الدم واستحلوا القمع ووجدوا فيه حلاً لكل مشاكلهم مع كل صاحب رأي مخالف؟ ومن الذي سيدفع في النهاية ثمن العنف غير المشيع الذي تغذيه الدولة وإعلامها، وهي تظن أنها ستبقى آمنة من عواقب انفجاره المروعة أجازنا الله منها.

لعل التاريخ الحديث لم يعرف حاكماً تمكن من شك شعبه مثلاًما فعل الدكتاتور الألباني أنور خوجة، لك أن تعرف أنه قام ببناء حوالي مليون برج مراقبة عسكري بامتداد حدود ألبانيا، في وقت كان يمكن



بتكلفة بناء برجين للمراقبة أن تبني شقة سكنية بها غرفتا نوم، وكان يصل بك الأمر إلى دخول السجن إذا قتت بتوجيه هوائي التلفزيون تجاه إيطاليا، وكما تقول الكاتبة الكرواتية سلافينكا دراكيوليتش في كتابها البديع «المقهى الأوروبي» الذي درست فيه أحوال دول أوروبا الشرقية عقب انهيار أنظمتها الدكتاتورية، فقد ساعدت تلك الأبراج أنور خوجة على البقاء، لكنها لم تساعد على الاستمرار مسيطرا إلى الأبد كما كان يظن، وكان الثمن الذي دفعه البلد غاليا جدًا عندما جاءت لحظة الانفجار في عام ١٩٩١، فقد قام الشعب الذي ظل يسبح بحمد أنور خوجة سنين طويلة بتدمير كل شيء: المحال والمستشفيات والمصانع والمدارس بل وحتى المخابز، ولم يحدث في أوروبا الشرقية كلها ذلك القدر من العنف المدمر الراغب في محو الماضي ولو حتى بتدمير الذات.

للأمانة، لا أحد من كبارات البلد الآن يعتقد في إمكانية تكرار سيناريو الحديد والنار الذي قدم خوجة والقذافي و«الأسدان» وصادام وتشاوشيسكو نسخا متنوعة الشائعة منه، برغم أن الكثير من أنصارهم في الشارع يظنون أنه لا توجد مشكلة في إعادة تنفيذ تلك النسخ بإخراج مصري خاص «طالما الشعب مبسوط وعشان البلد تمشي»، لكن سلطة اللواءات ومو السبها الجدد يعلمون صعوبة تحقيق ذلك في ظل العيون العالمية المفتوحة على اتساعها لمراقبة ما يحدث في مصر، ليس حبا في الديمقراطية بل خوفا من تدهور أوضاع مصر بشكل يهز استقرار المنطقة كلها، ولأن من في السلطة يدركون أن ذلك ما يهم الدول الكبرى حقًا؛ لذلك يعملون بكل همة ونشاط على إعادة ماكينات إنتاج الفتات للعمل بكل طاقتها

لإظهار كرامات التفويض للشعب في أسرع وقت؛ لكي يمنح بركاته للنظام السياسي الجديد الذي يجري تهجينه الآن من حاصل ضرب تجارب روسيا وإيران والصين وكازاخستان وفنزويلا وكوبا وأي تجربة «معتفة» تساعدنا على أن يكون لدينا حاكم شاكم وطبقة لواءات مسيطرة وطبقة مدنيين متعاونة وطبقة شباب مدجنة و«ملايين الشعب تدق الكعب» وتعاود ما وجدت عليه آباءها وهو المشي جنب الحيط.

تبدو كل عناصر الطبقة مكتملة نظريًا، باستثناء عملية تدجين الشباب الذي تظن سلطة اللواءات أن حل مشكلتها معه يكمن في تصفية جيل يناير وتصعيد جيل يونيو، لكن الأيام ستكشف لها أن مشكلتها مع شباب مصر أعمق وأعوز وأعقد من مشكلتها مع أسماء بعينها أو حركات بذاتها، فهي مسألة صراع حياة أو موت بين الماضي والمستقبل، الآن يظن الماضي المتنتهي أنه يمكن أن يستمر إلى الأبد دون حتى أن يقوم بعمل «نيو لوك» يناسب القرن الحادي والعشرين، وربما يفكر في عمله قريباً لو لزم الأمر، لكن، وبرغم أن المستقبل الآن مرتبك ومشتت ومجهد وحائر، فإنه سيتنصر حتماً، ليس بفضل ذكائه؛ بل بفضل غباء الماضي الذي سيعجل بانتهاه عمره الافتراضي.

«وبكره تشوفوا مصر».. حين يتعس الشاكم والمشكوم.

نوفمبر ٢٠١٣

### خلي بالك من ثغائيفك!

في أيام خنيفة كهذه يجبرني حبر المطابع الذي تقاسمناه سوياً طيلة السنين الماضية، أن أنصحك صادقاً مخلصاً بأن تدأب على تذكير نفسك آناء الليل وأطراف النهار بأن البؤس العقلي وباء مثل الإنفلونزا الآسيوية والسعال الديكي والطاعون البقري، إذا حل بوطن فقد يحل بأي من أبنائه حتى لو كان من الذين يتقدمون صفوف محاربة البائسين عقلياً، فيضطر عندها لإخفاء الحقيقة المرة عن الجميع؛ حقيقة أنه يحارب البؤس العقلي وهو مصابٌ به.

ما العمل إذن؟ حاشا لله أن أدعي لنفسي أن أعراض التنمية البشرية ظهرت عليّ فجأة، فليس ما أقوله لك الآن سوى محاولة لأن أعطيك وصفتي الخاصة التي وجدتها فعالة في أغلب أيام الأسبوع باستثناء يوم الثلاثاء لأسباب تتعلق بموقفي التاريخي من هذا اليوم، والذي يتلخص في عدم فهمي لفكرته ومغزى وجوده.

وصفتي لمكافحة الإصابة ببؤس البؤس العقلي هي ببساطة: أن تعمل أولاً على تقوية مراكز الملاحظة والتفكير، و«توطية» مراكز الرغبة في تغيير آراء الآخرين إلى أدنى درجة ممكنة. ستكون محظوظاً

إذا أدركت مبكراً أن الحوار مع مصاب الهستيريا الفكرية أو السياسية عبث لن ينتج عنه في أحسن الأحوال إلا إصابتكما معا بالإرهاق، إن لم يؤدِّ إلى نتائج أفدح كأن تلتقط منه عدوى الهستيريا، وهي في رأي المتواضع أشد الأمراض قابلية للعدوى.

صدقني - كما يقول الفرنجة - أنا الآن جادٌ كنوبة قلبية عافاك الله، ولذلك تعال نفكر سوياً في الأمر بروية: هل خطر في بالك لماذا يقومون بعزل المصابين بأي وباء بيولوجي خطير إذا تفشى في بلد ما برغم ما في ذلك العزل من مرارة تصيب المعزول والمعزول عنه؟ ينبغي أن يكون الحال كذلك مع الهستيريا الفكرية والبؤس العقلي فهما أيضاً وباءان فتاكان لا حل معهما إلا أن تنعزل عن المصابين بهما؛ لأن محاولة التطوع بالاشتباك الفكري مع المصابين بهما لتغيير آرائهم في الحياة والكون ليس سوى «عَبْط رسمي»، يشبه تماماً فكرة أن تكون واقفاً إلى جوار شخص رمى نفسه للتو من الدور «التمتاش» وبات ينتظر الموت أو الإسعاف أيهما أقرب، فإذا بك تقترب منه وتذكره بقول إيليا أبو ماضي: «أيها الشاكي وما بك داء/ كن جميلاً تر الوجود جميلاً»، وهي أياً كانت دوافعها الطيبة لن تجني منها إلا أن تكون سبباً في آخر سيئة يكسبها المنتحرف؛ لأنه حتماً ولزماً سيذكر الفاضلة أمك بكل سوء وسجىء لها بشتيمة لا تستحقها حتى لو كانت لم تفلح في تربيتك على أبسط حقائق الحياة «بص لمستقبلك».

هل هذه دعوة لإعلان الهزيمة والتخلي ساعة زحف وباء البؤس العقلي على الوطن؟ أعلم أنك ستذكرني بالأمر الشرعي بعدم الفرار من الأوبئة؛ لأن الإنسان سيفر حينها من قدر الله إلى قدر الله، أنا

على العكس أدعوك للمقاومة لكن أنصحك فقط باختيار السلاح المناسب، وهو في ظني ليس سوى سلاح السخرية، فهو سلاح إستراتيجي وفعال ورخيص التكلفة أيضا، لكن من شروط فعاليته ألا تدع سيف السخرية يفارق يدك أبداً، وأن تضرب به في كل اتجاه، وتضرب به الجميع، بمن فيهم نفسك؛ لأن استخدام سيف السخرية في ضرب أعدائك فقط يفقده فاعليته، ويصيبك مع الزمن بنوع نادر من البؤس العقلي يجعلك تتصور أنك أرقى حالا وأفضل مالا ممن تسخر منهم ليل نهار، وأنت أصبحت تمتلك الحقيقة المطلقة التي حاربهم أصلا لأنهم يدعون امتلاكها، وبذلك تكون قد تحولت دون أن تدري إلى نسخة مطابقة وربما أكثر تشوها ممن تعاديهم، وهو ما يثبت مع الزمن صحة قول العم اللعين نيتشه الذي حذر مرارا وتكرارا كل من يحارب الوحوش من أن يتحول مع الوقت إلى وحش.

كل هذا كان أولا، أما ثانيا فليكن يا أخي الكريم أن تحرص على عدم قطع علاقتك اليومية والدائمة باشتهاء الطيبات؛ لأن ذلك سيبلك الوحيد إلى تذكر أنك لا زلت حيا، حتى وإن كنت حيا لا تركز بكل ما تتمناه أو بأي مما تتمناه. صدقتني عندما تفقد قدرتك على الاشتها لن ينفعل في المستقبل القريب ببصلة أن صوتك كان عاليا طول الوقت، أو أن موقفك كان دائما سليما أو أنك كنت تحارب على الدوام المعركة الصبح، فما فائدة أن يتنصر الفريق الذي تحارب في صفوفه إذا اكتشفت - في نهاية المطاف - أنك تحولت إلى جثة؟ لذلك أرجو أن تذكر دائما أن استمتاعك بالنصر، إن جاء النصر، يتوقف أصلا على بقائك حيا تشتهي وتُشتهي، فلا خير في نصر يأتيك وقد فقدت قدرتك على الضحك والطرب والتذوق

والنشوة، وكل هذه أمور تفقد كفاءتك فيها مع الخمول والانقطاع، فالعلم بالتعلم، والشهوة بالاشتها، والنشوة بالنشوي، والعظمة لله والتناكة لقوم آخرين أنت تعلمهم.

هذا وأوصيك ونفسي ثالثا وأخيرا بالحرص على تناول المكسرات خصوصا عين الجمل ليس لأنها تقوي الذاكرة فقط؛ بل لأنها تقوي أيضا مناعة الخصيتين، وقد «اختصصتهما» دون غيرهما من أعضاء الجسم؛ لأن آلامهما هي أشد وأقسى وأخطر ما يتعرض له الفرد في مجتمعنا المعاصر سواء كان ذكرا أو أنثى، ولا أدري لماذا يثير ذكرهما حفيظة بعض المحافظين المتحفظين برغم أن أحدا منهم لا يمكن أن يجادل في أهميتهما ودورهما في بقاء النوع البشري، أو أن يشكك علميا في أن من يحافظ «عليهما» حتى النهاية سالمين غانمين سيبقى، ومن يفرط فيهما سيفنى وتفىن معه أفكاره وإن كانت نبيلة وأحلامه وإن كانت جميلة، ولعلك إن استهنت بما أقوله لك الآن تلجأ إلى مراجعة معلوماتك التشريحية سريعا، وعندها ستلاحظ أن حباية عين الجمل قبل «فتحتها» تشبه الخصية وبعد فتحها تشبه المنخ، فلعل ذلك ينبهك إلى أن تأخذ حذرك من تعريض نفسك لما يمكن أن يؤدي إلى فقع تلك المنطقة الحساسة الغالية؛ لأن ذلك سيؤدي حتما ولزما إلى «فتح البطن»، عافانا الله وإياكم من الفقع والفتح معا.

أو كما قال مولانا عادل إمام: «كل واحد يخلي باله من لغاليغه»، مشيها لغاليغه.

أكتوبر ٢٠١٣

## وجهة نظر يهودا

... قولوا ما شئتم، أما أنا فلست نادما أبداً، بل إنني فخور بما فعلت، وسيأتي عليكم اليوم الذي تدركون فيه سفاهة الأقاويل التي تحدثت عن أكياس الذهب التي بعته بها؛ لتفهموا عندها أنني لم أفعل ما أغضبكم إلا من أجل مصلحة وطني.

العالم ليس مكاناً تتحقق فيه الأحلام الوردية، وأورشليم ليست مدينة فاضلة، ولن توجد في هذه الحياة أصلاً مدينة فاضلة؛ لذلك كان يجب أن يهدأ ولو رغماً عنه؛ لكي يتحقق الاستقرار، بدلاً من أن تشعل البلاد كلماته التي تلهب مشاعر المكبوتين وتهددنا بفوضى عارمة ندفع ثمنها غالياً.

بالطبع تألمت عندما رأيته ينزف على الصليب، لم أكن أحب أن يحدث له ذلك، لكنني توقفت سريعاً عن لوم نفسي عندما تذكرت الحقيقة المرة التي لن تعترفوا بها أبداً: حقيقة أن إصراره على أن يحقق كل أحلامه هو الذي أودى به هناك، ولست أنا؛ فقد كان عليه أن يتحمل ثمن رفضه لكل نصائحي بالأخذ الأمور دائماً بجدية، وألاً يذهب إلى أبعد مدى في عدائه مع من يملكون القدرة على إيدائه.

كان فرحاً بتحلق العامة من حوله، كان يا ولده يظن أنهم سيفقون إلى جواره في مواجهته الحتمية مع من يفزعهم هجاءه لاكتناز الأموال ودعوته للعطاء والبذل، لم يستجب لتحذيراتي له بأن يتوقف عن إشعال الجبهة الداخلية وزعزعة الاستقرار وتهيج الجماهير وإثارة مشاعر البسطاء، كان يريد مبتسماً بأنه لا يفعل شيئاً سوى أن يقول كلمته ويمضي، مع أنه كان يعلم أن كلماته كانت توقد النار في صدور المحرومين المتعطشين إلى استرداد ما يظنونهم حقوقهم.

سأقول لي إنها حقوقهم بالفعل، فليكن، ما الذي استفاده إذن من تذكيرهم بها؟ هل كان يظن أن عليه القوم ستقف مكتوفة الأيدي حين يدخل الهيكل ليقلب مناضد الصيرافة ويقول لهم: «مكتوب بيتي بيت الصلاة وأنتم تجعلونه مغارة لصوص»، أو عندما يردد خلفه الدهماء - الذين كان يسميهم ملح الأرض - أن دخول جبل في ثقب إبرة أيسر من دخول غني ملكوت السماء، أوحين يطلب من الأثرياء ألا يكتزوا كنوزاً على الأرض بل في السماء حيث لا سوس ولا صدأ ولا لصوص؟ ألم يكن يدرك خطورة كلام مثل هذا على السلم الاجتماعي، حتى وإن كان يقوله بنبرة هادئة كان يظن أنها ستلين له القلوب الغليظة؟ ثم قل لي بعيداً عن كل هذا: أين ذهب الذين كانوا يطربون لحديثه عن العدل حين احتاج إليهم؟ ألم تر بعضهم وقد أشاح وجهه لكي لا يرى هول الفاجعة، بينما وقف بعضهم صامتا مدعنا لكي لا يدفع ثمن رفضه لما يجري، أما أغلبهم فقد شارك في التهليل والتصفيق

والمباركة والتأييد لما يجري بعد أن تأكد أنه لا يملك أصلاً ما يقدمه له سوى موته؟

صدقتي لا تحتاج إلى أن تكون نبياً لكي تدرك أن الناس أوغاد، وأن الحياة أجمل من أن تضيعها على محاولة إصلاحهم أو تغيير أحوالهم بالنباية عنهم، فليغيروها هم إن أرادوا، لماذا توجع قلبك وتضحي بحياتك من أجل من ألفوا العفن وأصبحوا لا يرون سواه بديلاً؟ هاه؟ تبدو جميلة في فمك وأنت تلوكتها عبارة «ما الذي يفيدك لو كسبت العالم وخسرت نفسك»، طيب، جرب أن تقولها وأنت ترى دماءك نازقة على الأرض دون أن يبيكي عليك أحد، عندها فقط ستفهم وجهة نظري، وستدرك أنني جنبتي وطني وشعبي فتنة لم تكن ستفضي إلى أي تغيير أو إصلاح.

لا أستطيع أن أنكر أنني كنت معجباً به، كان شاباً طاهراً مشرقاً يقول كلاماً جميلاً يحرك النفوس، كنت أحبه مثلما كان يحبه الكثيرون، لكنه فهم محبتنا خطأ، وتصور أنه سيقدر على أن يفرض حلمه بعالم يكون من حق الفقير أن ينازع الغني ثروته، فيمنحها له الغني عن طيب خاطر؛ عالم يكف الناس عن الاستمتاع بشهواتهم في التسلط والسيطرة ليأملوا في ملكوت الله؛ عالم لا تمتلك فيه حتى متعة أن ترجم عاهرة بحجر قبل أن تفكر في خطاياك قبل ذلك، هل كان يظن أنه سيجد عالماً مثل هذا إلا في السماء؟ إذن، فلتشكروني لأنني عجلت بإرساله إليها، فليهنأ بعالمه هناك، وليترك لنا عالمنا نعيشه كما ألفناه قبل أن يسممه بأفكاره التي لم تعد بعدها حياتنا هائلة كما كانت.

صدقتي، كان لا بد أن نقتله لكي لا نكون مثل بابل وأنطاكية، كان لا بد أن نقتله لكي تحيا أورشليم.

(مهداة إلى مينا دانيال وعماد عفت وطارق الأقطش وشهداء الثورة المصرية).

أكتوبر ٢٠١٤